

عبدالله كنون

أنجم السيرة وقصائد أخرى

وهي نماذج من الشعر المغربي النادر موثقة ومُحققة
مع تعريف بأصحابها وتعليق خفيف على بعض أبياتها
بقالبد منه لتوضيح مكانتها



دار الثقافة

المنشور والمنشور
الدار البيضاء

أَنْحُمُ السِّيَاسَةَ وَفَصَائِلُ أُخْرَى

وهي نماذج من الشعر المغربي القادر مؤنفةً ومحققة
مع تعريف بأصحابها وتعليق خفيف على بعض أبياتها
بمآلاته منه لتوضيح مكانتها

عبد الحكيم

لنجم السيرة وقصائد أخرى

وهي نماذج من الشعر المغربي النادر موثقة ومُحققة
مع تعريف بأصحابها وتعليق خفيف على بعض أبياتها
بقالبد منه لتوضيح مكانيتها



دار الثقافة

للنشر والتوزيع

34-32 شارع فيكتور هيوغو - ص.ب. 4038

الهاتف 30.23.75 - 30.76.44

157 شارع لاجيروند - الهاتف 24.79.32

تليكس 22602 - الدار البيضاء

الطبعة الأولى 1410 هـ / 1989 م
جميع حقوق الطبع محفوظة
الإيداع القانوني رقم 1989/604

مقدمة

كان من رأيي دائما أن الذين أرخوا للأدب العربي، فوقفوا به عند مشارف القرن الخامس، قد ظلموا هذا الأدب وأوجدوا فيه فجوة كبيرة تمتد من نهاية القرن الرابع إلى بداية القرن الرابع عشر حين انبلاج فجر النهضة الحديثة، أي مدى تسعة قرون كاملة، يحكمون عليها بالعقم الأدبي، وضحالة الفكر، ويعدونها عصور انحطاط وتراجع، خاصة في ميداني الشعر والنثر، والشعر بالأخص.

ولعل مرجع ذلك إلى الكاتب الأول الذي خطط لتاريخ الأدب، فرأى أن عهد ازدهاره وغلبته على ماسواه من الآداب المنتسبة إلى الأقوام غير العربية، المتعايشة في ظل الدولة الإسلامية الكبرى، هو العهد العباسي الأول، فتبعه كل الذين كتبوا في الموضوع، كما يحصل غالبا في مثل هذه الأعمال، لاسيما والتأريخ للأدب العربي، وتقسيمه إلى عصور، فن مُحدث إنما ظهر أولا في البرامج الدراسية الجديدة بحكم سد الحاجة إليه، مقابل ما هو موجود فيها من مادة تاريخ الآداب الأجنبية.

والأمر إن يكن أخذ بعامل السرعة وسوء التقدير، فقد آن الأوان لمراجعة الموقف وتصحيح الغلط، ووضع مسطرة سليمة لتقويم إنتاجنا الأدبي في العصور المحكوم عليه بالتخلف، بعد إجراء مسح دقيق لهذا الانتاج في كتب التراث من مجموعات أدبية ودواوين شعرية وغيرها، التي ماتزال مخطوطة، والتي طبعت في السنوات المتعاقبة بعد ظهور جل المؤلفات المتداولة في تاريخ الأدب العربي.

ولعل مثال المغرب العربي أعظم دليل على خطأ الفكرة التي بنيت عليها تواريخ أدبنا، فإنه كان يهمل فيها اهمالا كلياً، وإذا ذكر تسامحا، فأكثر ما يُذكر ابن رشيق وكتابه العمدة، وابن خلدون ومقدمته، إلى أن ظهرت كتبنا في تاريخ الأدب المغربي، فصارت بعض كتب الأدب العربي الجديدة تلم بشيء من تاريخ المغرب وأدبه وشخصياته، وهكذا يتبين للملاحظ الاجحاف الكبير الذي وقع للأدب العربي، من جانب المخططين لتاريخه والمؤلفين فيه.

نعم إن العهد العباسي الأول كان قمة النهضة الفكرية العربية، وعصر التفتُّح على فنون العلم والأدب والمعرفة، وقد استقطب جميع العناصر والقوميات المتساكنة في الرقعة الفسيحة التي كانت تخضع لدولته، فأغنتها لغته وأدبه عن لغاتها وآدابها المتنوعة، وكانت أيامه زينة للدهر، وفترة زاهرة في تاريخ الانسانية، قلما

عرف العالم لها نظيرا. وكل ما قيل فيه لا يوفيه حقه من التنويه والتقدير، وأما الأدب العربي في هذه الفترة، فإنه فاق أدب الأمم السابقة واللاحقة، قبل عصر النهضة الحديثة في الغرب، والذين ينالون منه ويزرون به من الباحثين الأجانب ومن لف لف لفهم، فإنما يبعثهم على ذلك كراهية للعرب وحقد على دولتهم، وشعوبية جديدة خلفت الشعوبية التي عرفها العرب في أوطانهم من بعض العناصر الموتورة والقوميات المنسحقة التي لم يبق لها وجود مع البعث العربي العظيم.

ولقد استقلت فارس بعد ذلك، وأحيت لغتها وأدبها، بالاستمداد من اللغة العربية وأدبها، فاستحقت تنويه أولئك الباحثين واكبارهم من حيث يعيرون الأدب العربي وينالون منه، وما ذلك إلا تعصبا على العرب واستخفافا بأمرهم والا فأين يجيء الأدب الفارسي من الأدب العربي الغني الواسع المليء؟ وقد نقلت إلى العربية أخيرا بعض كنوزه التي طالما نوه بها المستشرقون وعدوها من الروائع العالمية، مثل كتاب كلستان لسعدي، فهل يقاس ولو بكتاب المستظرف للابشيهي الذي ربما يوضع في آخر قائمة كتب الأدب العربي؟

ولست أشنع أو أطعن في الأدب الفارسي، وهو أدب إسلامي كبير، وإنما أريد أنؤكد أن التقليل من شأن الأدب العربي والتشكيك في قيمته، حتى في أزهى عصوره، خطة مرسومة للترهيد فيه، وصرف أبناءه عنه، فما بالك بالعصور التي تلتها، لأننا وان قلنا بأن العصر العباسي الأول، هو العصر الذهبي لأدبنا، فليس

معنى ذلك أن العصور الأخرى لا بد أن تكون عصور انحطاط لهذا الأدب وتراجع مستديم، وأن ننظر إليه بهذه العين وندرسه على هذا الأساس، كما أراد الموجهون والمخططون الأول، سواء كانوا منا أو من غيرنا، وسواء كان عملهم هذا صادرا عن قصد سيء أو تقدير خاطيء.

ومجال الكلام في هذا الباب واسع جدا، ولم نعقد هذا البحث لتقصيه ولا للالمام به ولو في الجملة، ولكنها خطرة فكر، كان لا بد منها تمهيدا للموضوع الذي نحن بصددده، وهو مما يمت إلى هذه القضية بسبيل، بل انه أحد الأمثلة الناطقة بصدقها فيما يقدمه من نماذج شعرية بديعة، أهملها تاريخ الأدب العربي، وفاتت الراصدين المدونين لفوائده ودرره.

إنها قصائد رائعة من الطراز الممتاز شكلا ومضمونا، لفظا ومعنى، فمن حيث الأداء توفرت فيها جميع شروط البلاغة مع العبارة الفصيحة والتصوير البارع، ومن حيث المحتوى اشتملت على أغراض أبكار قلما تناولها الشعر العربي قديمه وجديده، على أن بعضها وان تواطأت مع المروي من الأشعار في موضوعاته المعهودة، فقد كان المامها به في أسلوب مشبع بالحيوية والتجديد.

وناهيك أن من هذه القصائد، ما يحمل اسما علما تتعارف به لدى الأدباء، ويميزها عن غيرها من مختلف المنظومات والأشعار، كهذه التي تسمى أنجم السياسة، والتي عنونا بها هذا البحث.

قصيدة أنجم السياسة

هي قصيدة فريدة في موضوعها، لانعرف لها نظيرا فيما تناولته من مادة السياسة وتدبير الملك بأسلوب شعري جميل، فإنما عهدنا أن يتطرق شعراؤنا لهذا الموضوع في البيت والبيتين، أو المقطوعة الصغيرة تحتوي خاطرة من خواطر السياسة أو جزئية من جزئيات قواعد تدبير الملك كقول ابن زريق في عينيته المشهورة :

أعطيت ملكا فلم أحسن سياسته
وكل من لايسوس الملك ينزعه

وقول أبي الفتح البستي :

إذا غدا ملك باللهو مشتغلا
فاحكم على ملكه بالويل والحرب
أما ترى الشمس في الميزان هابطة
لما غدا وهو برج اللهو واللعب

وقول الافوه الاودي من قصيدة :

فينا معاشر لم بينوا لقومهم
وان بنى قومهم ماأفسدوا عادوا

لا يرشدون ولن يرعوا لمرشدهم
فالغى منهم معا والجهل ميعاد
لا يصلح الناس فوضى لا سراة لهم
ولا سراة إذا جهالهم سادوا
والبيت لا يُتتى إلا بأعمدة
ولا عماد إذا لم ترس أوتاد
فان تجمع أسباب وأعمدة
به فقد بلغوا الأمر الذي كادوا

وقد يتعرض الشعراء لمعاني من هذا الباب في قصائد المدح، حين
يعدون مناقب ممدوحهم من ملوك ورؤساء، فيأتون على أشياء
وأوصاف مما يستحسن من سياستهم وتدبيرهم كما في قول المتنبي
يمدح سيف الدولة :

على قدر أهل العزم تأتي العزائم
وتأتي على قدر الكرام المكارم
وتعظم في عين الصغير صغارها
وتصغر في عين العظيم العظائم
يكلف سيف الدولة الجيش همه
وقد عجزت عنه الجيوش الخضارم
ويطلب عند الناس ما عند نفسه
وذلك مالا تدعيه الضراغم

وقوله فيه عند ايقاعه بيني كلاب.

ترفق أيها المولى عليهم
فإن الرفق بالجاني عتاب
وما جهلت أياديك البوادي
ولكن ربما خفى الصواب
وكم ذنب مولده دلال
وكم بعد مولده اقتراب
وجرم جره سفهاء قوم
فحل بغير جارمه العقاب

أما أن تتمحض القصيدة كلها لهذا الغرض، وهي من الطوال الجياد، فتبدى فيه وتعيد، ويتفنن صاحبها في أساليب القول، من الخطاب إلى الغيبة، ومن المدح إلى النصيح، ومن ضرب المثل إلى إبراز المعقول في صورة المحسوس، مع الامام بمجمل قواعد تدبير الملك وأصول السياسة، وتعليلها وبيان حكمتها، والمحافظة على وحدة الموضوع بحيث لا تخرج عنه ولا تتخبط فيه، بل تسير على النهج اللاحب والتخطيط الواضح، فانا لانجد ذلك إلا في قصيدة أنجم السياسة هذه، التي نقدمها لدارس الأدب العربي ومؤرخيه، وننفض عنه غبار الاهمال والنسيان. وننشرها كاملة غير مقطعة، منسوبة محقة، لا كما نشرت من قبل ضمن إحدى المقامات الأدبية، من دون تنويه بها ولا تنبيه على صاحبها كما يتبين مما يأتي.

من هو صاحبها ؟

الحسن والاحسان قد يكونان مصيبة على صاحبهما، ولذلك وقع لهذه القصيدة ماقع لقصيدة الشهاب الاعزازي التي ادعاها فيما قبل سبعون شاعرا، وهي النونية التي أولها :

صاح في العاشقين بالكنانة
رشأ في الجفون منه كنانة

وقصيدة أنجم السياسة لم يدعها أحد ممن نسبت إليه، فيما نظن، ولكن الناس نسبوها، حسب ما اطلعنا عليه، إلى ثلاثة أشخاص من أهل العلم والأدب.

(أولهم) صاحبها الحقيقي وهو الوزير أبو محمد ابن المالقي

(وثانيهم) لسان الدين ابن الخطيب الشهير.

(وثالثهم) الرئيس أبو القاسم بن رضوان النجاري.

فأما لسان الدين فقد نسبها إليه شارحها محمد بن عبد الله الدمناتي بإشارة من ابن عمه الفقيه القاضي الأعدل أبي العباس أحمد بن عبد الرحمان الدمناتي القاضوي الذي ندبه إلى شرحها نجل السلاطين الكرام، سليل سيد الأنام، مولانا أبو عبد الله هشام، كما ورد في طالعة الشرح وصفا للاثنين.

ولاشك أن هذا الأمير هو ابن السلطان مولاي سليمان العلوي، فالشارح إذن متأخر، من أهل القرن الثالث عشر.

ويقع هذا الشرح في كراسة ونصف، لأن القاضي المنتدب له، الذي وكل المهمة إلى ابن عمه المذكور، أشار عليه بأن يقتصر على بيان معنى البيت واعرابه من غير استطراد لما يناسبه من آية أو حديث أو خبر أو غير ذلك. ولعلها إشارة الأمير هشام نفسه الذي كان يهيمه فهم ألفاظها وتصور معانيها فقط، ولذلك قال هذا الشارح. «ولم أستطلع لها ديوانا من دواوين العرب، ولانشرت لأجلها مصنفا من مصنفات الأدب» إلخ وسمى شرحه بالمواهب الربانية في شرح قصيدة السياسة السلطانية.

ويظهر أنه لم يكن يعرف أن اسمها أنجم السياسة والا لكان سمي شرحه بما يوافق هذا الاسم.

كما أنه بدأ بالشرح من البيت الخامس عشر، وترك الأبيات الأربعة عشر التي تتضمن مدح الملك المخاطب بها، فاما أنه طرحها لعدم اهتمامه بمضمونها، واما انه لم يطلع على هذه الأبيات لأنها تحذف من بعض نسخ القصيدة. وبالجملة فهو شرح مختصر جدا، لايزيد على تفسير الألفاظ اللغوية وتوضيح معاني الأبيات بعبارات مفهومة، وهو وان كان له خطبة ومقدمة، فقد انتهى بغير خاتمة، وكذلك لا يعرف تاريخ كتابته لا تأليفا ولا نسخا، وخطه مغربي جميل، وأبيات القصيدة المشروحة فيه

مكتوبة بمداد أحمر، وهي في بعض أوراقه لم تكتب، فبقى مكانها أبيض، والمهم أنه نسب القصيدة للفقير الأديب البارع الأريب الكيس اللبيب سيدي محمد بن عبد الله بن سعيد بن الخطيب، على حد تعبيره، وهذا هو الاسم الكامل للسان الدين ابن الخطيب.

والشرح الموصوف يوجد ضمن مجموع خطي لصديقنا الأستاذ البحاث السيد محمد المنوني، وقد أعارني إياه لما علم باهتمامي بهذه القصيدة، فله الشكر الجزيل.

ونلاحظ (أولاً) أن هذه القصيدة لا توجد في ديوان لسان الدين المسمى بالصيب والجهم والماضي والكهام الذي جمعه بنفسه وأودعه مختار شعره. وهو أو ما يوجد منه على الأصح ما يزال مخطوطاً، ولكن هذه القصيدة ليست من محتوياته.

(وثانياً) إن الذين ترجموا لابن الخطيب وعنوا بذكر آثاره المنشورة والمنظومة، قديماً وحديثاً لم يثيروا إليها إطلاقاً، وأكفاهم وأوسعهم إحاطة بهذا الغرض العلامة المقرئ صاحب نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب وذكر وزيرها لسان الدين ابن الخطيب فإنه استوعب الكلام على التعريف بلسان الدين والتنويه بإنتاجه الرفيع نظماً ونثراً في مختلف المواضيع ولم يعرج على هذه القصيدة ولم يرد لها ذكر في كتابه الضخم، وهي ليست مما يهمل أو ينسى لو كانت له، وكان هو صاحبها فقد ذكر من غرر قصائده ومقطعاته

وأبياته الكثير الطيب، مشيدا بها غير قاض العجب من ملكة ابن الخطيب وشاعريته، فهل من المعقول أن يتغافل عنها، وهي القصيدة العصماء، والدرة الفريدة ان وقعت له وثبت عنده أنها من نظم ابن الخطيب ؟..

(وثالثا) اننا عند تحليل هذه القصيدة والنظر في أسلوبها، نجد أن نفسها يختلف عن نفس ابن الخطيب ونظمها غير نظمه، فقد امتازت بالسلاسة والوضوح، ونزعت منزع العلماء في ترتيب الأفكار وتفصيل الألفاظ على قد المعاني مع الاستشهاد ببعض الحقائق العلمية عند الاقتضاء، في حين أن أسلوب ابن الخطيب الشعري يميل إلى الجزالة والقوة وينهج نهج الشعراء في التخيل والتمثيل، وهو على العموم يحتاج إلى تأمل وبعد نظر في إدراك معانيه والالام بمغازيه، والقصيدة المعنية ليست كذلك.

ولم ينفرد الدمناتي بنسبة قصيدة أنجم السياسة إلى ابن الخطيب، فقد أخبرني المؤرخ الكبير الأستاذ محمد عبد الله عنان أنه وقف على مقامة سياسية منسوبة إلى ابن الخطيب في المكتبة الوطنية بالجزائر، ضمن مجموع خطي، وأنه اشتبه فيها لأنها لاتوجد بين تراث ابن الخطيب الذي نسبه إليه مترجموه، ومن وصفه الذي وصفها به، رجحت أنها المقامة المسماة بحضرة الارتياح المغنية عن الراح للقاضي ابن أبي حاتم العاملي المتوفى سنة 815. وأخبرته أنها مطبوعة بتونس سنة 1331، ووجهتها له ليقارن بينها وبين المخطوطة المشار إليها، فإذا هي هي كما أجبني بذلك بعد اطلاعه عليها

والمقصود من هذا أن قصيدة أنجم السياسة ذكر في آخر هذه المقامة، على أنها ماأنشده بطلها للملك الذي أنشئت المقامة له، مقتصرًا على أربعة عشر بيتًا من أولها، وهي التي يخاطب فيها صاحب القصيدة الحقيقي الملك الذي قدمت له. وبعد محاورة نثرية بين بطل المقامة وملكها، توبع إنشاد القصيدة إلى النهاية.

فمن ورود هذه القصيدة في مقامة حضرة الارتياح، مع نسبة هذه المقامة في بعض النسخ إلى ابن الخطيب، توهم من توهم أنها له، كشارحها الدمناقي، لاسيما وهو يتدثها بالبيت الخامس عشر الذي استونف إنشادها منه في المقامة من غير تفطن إلى أولها الذي اقتطع في ابتداء الانشاد منها. وهكذا تدورولت عند بعضهم، وتحت يدنا نسخة منها مستقلة، غير نسخة الشرح. انما تبدأ بالبيت الخامس عشر «لا يقال انها لذلك تكون من نظم صاحب المقامة القاضي ابن أبي حاتم، لأننا نقول عليه :

(أولاً) ان أحدا ممن نقلها أو شرحها لم ينسبها إليه، وأكثر مانسبها الناقلون لصاحبها الحقيقي أبي محمد عبد الله ابن المالمقي، ونسبت لابن الخطيب في بعض النسخ، وفي شرح الدمناقي كما مر آنفاً، ونسبت لأبي القاسم بن رضوان في شرح مجهول المؤلف كما سنبنيه قريباً. وأما ابن أبي حاتم صاحب المقامة، وان نقلت عنه فيما نظن، فليس هنا من نسبها إليه، وبيدنا ست نسخ لها غير النسختين المنسوبة إحداهما لابن الخطيب عند شارحها الدمناقي، والأخرى

لابن رضوان عند شارحها المجهول، وليس في واحدة منها ذكر لابن أبي حاتم أو نسبة إليه مما يدل على أن من نقلها عنه، عرف أنه إنما أنشدها انشادا ولم يكن هو الذي نظمها.

(ثانيا) ان أوصاف الملك الذي أنشأ له ابن أبي حاتم مقامته، تُباين كل المباينة أوصاف الملك الذي نظمت له القصيدة، فذاك عربي بين أعجام، نشأ نشأة متصاوية مستهترة، ولما أفاق من سكرة شبابه، التمس من يأنس به من أبناء بلدته، فحضر لديه وفد من العرب، هو الذي أنشئت المقامة على لسان أفرادهِ. والملك المخاطب بالقصيدة على خلاف هذا كله، كما يفهم من الأبيات الأربعة عشرة الأولى التي قيلت في خطابه. فواضح إذن أن صاحبنا القاضي ابن أبي حاتم إنما أنشد هذه القصيدة في ختام مقامته ولم ينظمها.

أضف إلى ذلك أن المقامة كلها كتبت بطريقة الالتزام، نثرها وشعرها، فقد كان أفراد الوفد العربي الذي حضر لدى الملك المذكور على عدد حروف المعجم، وكان كل فرد منه يخاطبه بنبذة من النثر المسجوع يذكر فيها اسمه ونسبه واسم جاريته، مع ضرب مثل في شؤون السياسة وتدير الملك، ملتزما في ذلك كله الابتداء بالحرف الأول من اسمه، ثم ينشد قطعة من الشعر في التغزل بجاريته، لاتتجاوز أربعة أبيات، ولكنها تلتزم نفس الحرف في أول كل بيت وآخره.. وهكذا جاءت المقامة مثقلة بالصنعة البديعية من أولها إلى آخرها، وليس فيها مما عرى عن هذه الصنعة إلا القصيدة التي نحن

بصددتها، وقطعة شعرية في أول المقامة هي ولاشك من نظم صاحبها، وبيتان في آخرها معروفان اقترح على المؤلف تخميسها الخ. وهذا مما يدل على أن كاتب المقامة حين أورد القصيدة إنما كان منشدا لا ناظما لمخالفتها لطريقته، وعدم شبهها بصنعتة.

وإلى هذا فقد نسبت القصيدة إلى شخص ثالث هو الرئيس أبو القاسم عبد الله بن يوسف بن رضوان النجاري المالقي صاحب القلم الأعلى في دولة بني مرين⁽¹⁾ على ما ألمعنا إليه سابقا. والذي نسبها إليه صاحب شرح مجهول، على هذه القصيدة، يوجد بالخزانة العامة بالرباط تحت رقم (ك 932) ولكن الموجود منه إنما هو شرح البيت الأول.

ومن العجيب أنه ذكر استقضاءه بجبل طارق وامتحانه بالسجن في فاس، مدة طويلة، قال : كما لمح لذلك بقوله في القصيدة : تفقد السجن... البيتين. وفي السجن الف — كما يقول هذا الشارح — تأليفه في الاعتقال، وذكر فيه مقامات أنشأها وهو بالسجن، ومن جملتها مقامة حضرة الارتياح المغنية عن الراح، وجعلها مقصدين ! مدح السلطان وبسط الكلام على سياسة مملكته.

وفي مقدمة هذا الشرح كلام نفيس في مدح العلم والمعرفة وذكر السياسة وأصولها، جاء في أثنائه قوله : ومن أجل لمعها البارقية،

(1) تنظر ترجمته في جذوة الاقتباس، ونيل الابتهاج والتعريف بابن خلدون وغيرها.

السياسة المالفية، فلقد أبدع فيها صاحبها ماشاء، وميز في فوائدها بين الخير والانشاء، إلا أنها لازالت عروسا في خدرها، بخاتم ربها من أبي عذرها. إلخ.

ويظهر أن هذا الشارح اشتبه عليه أمر رئيس الكتاب ابن رضوان بالقاضي ابن أبي حاتم. فالمعروف أن هذا الأخير هو الذي استقضى بجبل طارق، وامتنحن بالسجن في فاس، على حسب ماجاء في التعريف به على ظهر نسخة المقامة المطبوعة باهتمام العلامة الأديب السيد محمد بن قاسم البادسي الأنصاري الأندلسي الفاسي... والا فإن صاحبنا ابن رضوان لم يذكر في ترجمته أنه ولي القضاء أصلا بجبل طارق ولا بغيره⁽¹⁾ ولا ذكر أنه امتحن بالسجن في فاس ولا في غيرها فلعل الاشتباه الذي وقع له في ترجمته، هو الذي جعله ينسب القصيدة إليه بحكم أنها واردة في المقامة التي هي من تأليف القاضي ابن أبي حاتم، قاضي جبل طارق الممتحن بالسجن في فاس على ماذكرناه خصوصا مع نسبة ابن رضوان إلى مالقة والقصيدة كذلك منسوبة إليها.

وحيث تبين الخطأ في ترجمة ابن رضوان، فإن الخطأ في نسبة هذه القصيدة إليه أبين، من حيث أن أحدا لم ينسبها إليه ومن حيث شهرة نسبتها إلى غيره، وهو مانزیده توضيحا فيما يلي :

(1) نعم استنيب في القضاء بفاس مدة كما عند ابن الآبار في مستودع العلامة ولكن النياية غير الولاية.

فبعد استبعاد نسبتها إلى كل من ابن الخطيب وابن رضوان، بقي معنا ابن المالقي، وهو صاحبها الحقيقي في نظرنا.

(أولاً) لأن بيدنا ست نسخ خطية غير نسختي الشرحين المذكورين، أربع منها تنسبها له، وواحدة تنسبها لابن الخطيب وهي تبدأ من البيت الرابع عشر، وقد أشرنا إلى الشبهة في ذلك، عند ملاحظتنا على نسبتها لابن الخطيب. والنسخة السادسة غفل عن النسبة... فأكثر النسخ إذن على أنها لابن المالقي.

نعم في نسختين من النسخ الأربع جاءت النسبة هكذا : للقاضي أبي عبد الله المالقي، وفي النسختين الباقيتين لأبي عبد الله المالقي بدون وصف القاضي.

وصاحبنا ابن المالقي لم يل القضاء كما سيتبين من ترجمته الآتية، هو أبو محمد عبد الله، لا أبو عبد الله، ولا يبعد أن يكون وقع في اسمه تحريف أو تخفيف، فصار أبو محمد أبا عبد الله، لاسيما وهذه النسخ كلها لم تذكر من أين نقلتها ولا من نقلها حتى نعتمد نقلها في شيء من ذلك. غاية الأمر أنها كلها تنسبها لمن ذكر. فأما وصف القاضي في بعضها فلعله أتى من عدم التمييز بينه وبين بلديه ومُعاصيره وسميَّه عبد الله بن عبد الرحمان المالقي الذي ولى القضاء لعبد المومن الموحي وولده يوسف... هذا ان لم يكن هو نفسه ولى القضاء ولم نطلع على ذلك.

(ثانياً) ان وصفها بالسياسة المالقية كما مر في الشرح المجهول

المؤلف، وتسميتها بأنجم السياسة، مما يرجح أنها لشخصية سياسية من أهل مالقة، لاعلمية أو قضائية فقط، وليس عندنا ممن لعب دورا سياسيا هاما بصفته وزيرا وأكثر من وزير في دول المغرب، وهو مالقي إلا صاحبنا أبو محمد ابن المالقي الذي نعتقد أن هذه القصيدة له، فقد كان بالوصف الذي ذكرناه في دولة الموحدين أيام عبد المومن وولده يوسف. والمكانة التي كان يحظى بها لدى هذا الأخير تخوله أن يقول هذه القصيدة ويخاطب بها مخدومه الذي كان من أهل العلم والحكمة والسياسة، وكان من خاصة العلماء والأدباء والمثقفين.

(ثالثا) قال المراكشي في المعجب، وهو يتكلم على يوسف بن عبد المومن : «ولم يزل يجمع الكتب من أقطار الأندلس والمغرب، ويبحث عن العلماء وخاصة أهل علم النظر، إلى أن اجتمع له منهم ما لم يجتمع لملك من المغرب قبله⁽¹⁾، وهذا مايشير له البيت التاسع من القصيدة في خطاب ملك قدّمت له فيما نعتقده، وهو يوسف بن عبد المومن. لأن في أيامه برزت شخصية ابن المالقي :

جمعتنا من تفاريق البلاد فلم
يفت لنا أمل الا جمعناه

(1) المعجب في تلخيص أخبار المغرب لعبد الواحد المراكشي ص. 145 طبعة المغرب.

(رابعاً) جاء في ختام القصيدة لمحة وعظمية مؤثرة تضمنت هذا

البيت :

للأشعرية فينا مذهب عجب
ومن سعادتنا أنا اعتقدناه

ولا يخفى ما في ذلك من الإشارة إلى ظهور مذهب الامام أبي الحسن الأشعري وانتشاره في المغرب على يد المهدي بن تومرت مؤسس الدولة الموحدية. وتقبل الناس له ولاسيما بطانة الخلفاء الموحدين ورجال دولتهم القائمين بدعوتهم وقد كان ابن المالقي من صدورهم وأعيانهم ناهيك أنه كان يلي لهم مشيخة الطلبة، وهو منصب خطير يوازي منصب وزير الدعاية وزير التربية في الدول ذات السياسة الموجهة والمذهب الخاص، فليس من الأمور العفوية إذن، ذكر المذهب الأشعري في القصيدة والنص على أن اعتناقهم إياه من سعادتهم، فإن في ذلك تلميحاً لما كان عليه المغرب من اتباع مذهب السلف قبل قيام دولة الموحدين، وما جاء به ابن تومرت من مخالفة لذلك حتى انه كان يسمى المرابطين بالمجسمين، وسمى أتباعه بالموحدين لأخذهم بمذهب الأشعرية المؤولين للمتشابه والنصوص الموهمة للتشبيه.

إن هذه الالتفاتة للمذهب والأشادة به، مما يحل من صاحب الأمر محل الرضى والاستحسان. وقد كان ابن المالقي يعرف ذلك ويشعر به تمام الشعور، بل ربما أوحى به لغيره. يدلنا على ذلك في

الجملة ما جاء في كتاب المن بالامامة لابن صاحب الصلاة، وقد أنشد قصيدة للشاعر أبي محمد بن حربون في تهنئة يوسف بن عبد المومن بوقعة على المخالفين بالمغرب، فلما أنهاها قال : «قال الفقيه الخطيب أو محمد المالقي رحمه الله : استحسن الأمر — أدامه الله — لأبي محمد هذه القصيدة حين صاغ فيها المذهب المراد، وقصد فيها الاقتصاد، وسبق أصحابه الشعراء القُصَّاد، وتقرب للأمر العزيز — أدامه الله — بأغراضه النبيلة فعلا ذكره وشاد...»⁽¹⁾ ولم يكن الغرض المذكور سوى أن يتبدىء الشعراء قصيدتهم بالحمد لله على طريق الكتابة، فكيف بمن يتعرض لمذهب الدولة الاعتقادي وينوه به ويذكر أن اعتقاده من السعادة ؟

(خامسا) ترجمة ابن المالقي التي تُظهر مؤهلاته الأدبية وقربه من الخليفين عبد المومن ويوسف وتقدميهما له ومهمته في البلاط الموحد، هي مما يؤكد أنه المراد عند نسبة قصيدة أنجم السياسة لابن المالقي أو أبي عبد الله المالقي على ما قدمنا من تخفيف اسمه أو تحريفه... وهاهي ذي باختصار كما وردت في التكملة لابن الأبار⁽²⁾.

«عبد الله بن محمد بن عيسى الأنصاري يعرف بابن المالقي أصله منها وسكن مراکش، يكنى أبا محمد، أخذ في صغره عن أبي الحكم

(1) المن بالامامة، الجزء الثاني ص 367

(2) ج 2 ص 486 طبعة مدريد

بن بُرجان، واختلف إليه بقريته من نظر طليطلة من شرف اشبيلية، ولازمه وبرع في علمه، وكان فقيها نظارا خطيبا مفوها، ذا حظ من الأدب وافر، ونال بخدمة السلطان دنيا عريضة، ورأس طلبة حضرته مراکش، وتوفي بها سنة 574. عن ابن عمر. وقال ابن صاحب الصلاة : توفي سنة ثلاث وسبعين وأثنى عليه كثيرا».

وجاءت في البيان المغرب لابن عذارى بصورة أكثر تركيزا على وظيفته الرسمية مع وصفه بالمالقي بدون ابن وهذا نصها (وفيها — يعني سنة 574 — توفي أبو علي بن عزّون والقاضي أبو القاسم بن فضيل، وأبو عبد الله المالقي شيخ طلبة الحضرة بمراكش، وكان من أهل العلم والدين والحفظ لحديث رسول الله ﷺ، ولم يزل عند الخليفة أبي محمد عبد المومن في حظوة مكينة، وكذلك عند الخليفة أبي يعقوب، وكان يرفع له المسائل، ويتناول توصيل الوسائل، ويرفع أشعار الشعراء، وإخراج الجزاء، وتقدم للخطابة والصلاة بأمر المومنين، وإذا وصل كتاب فتح أو غيره قرأه إلى غير ذلك وكان له أدب غرض وشعر في الزهد ومكفرات (الذنوب) ولم يزل في عز وتمكين إلى أن توفي رحمه الله⁽¹⁾).

ومن الجدير بالذكر أن مشيخة الطلبة هذه، مما أحدثه عبد المومن، وهي مؤسسة تضم أهل العلم والحديث الذين هم ركائز الدولة، وبلغت من عناية خلفائه بها وبرجالها ما أثار عليها حسد

(1) البيان المغرب ج 4 ص 112

وجوه الموحدين وزعماء قبائلهم⁽¹⁾، فلا جرم أن يكون لرئيسها هذه المنزلة الكبيرة في الدولة.

ومن شاء فليتبّع نشاط رئيسه في البلاط الموحيدي، وما كان له فيه من الحركة الدائبة أيام الخليفتين عبد المومن ويوسف، في كتاب المن بالامامة لابن صاحب الصلاة. ويهمنّا أن ننقل منه هذه الفقرة خاصة، وهي المتعلقة بحوادث سنة 560، وهي التي تقول⁽²⁾ ! «وفيها. اختص الأمير الأجل الأعدل بوزارته أبا العلاء إدريس بن جامع وقربه وأحبه وماشى معه الفقيه أبا محمد المالقي في المسائل» فهي تدل على أنه كان مستوزرا أو نائب الوزير الأول.

وعلى كل حال فهذه هي ترجمة صاحبنا ابن المالقي ومؤهلاته التي تجعل منه رجلا كفؤا جديرا بأن تنسب إليه قصيدة أنجم السياسة، ويكون هو ناظمها وناسج بردها، لا ينازعه في ذلك أحد ممن نُحلت له وحُملت عليه، إلا أن يظهر ما يخالف ذلك من نقل صحيح وعزو ثابت وتوثيق راجح.

(1) انظر المعجب ص 172

(2) المن بالامامة ج 2 ص 285

نسخها واسمها

ماوقفت عليه من نسخ هذه القصيدة ثمان :

(1) نسخة مكتبنا الكنونية، وهي واقعة ضمن مخطوط يشتمل على عدة مؤلفات، وخطها مغربي واضح ومشكول شكلا صحيحا وتحمل هذا العنوان بعد الحمد لله : «هذه القصيدة تسمى أنجم السياسة للعلامة الأجل أبي عبد الله المالقي رحمه الله». وتقع في خمس صفحات، ويمكن أن تكون كتبت في القرن الماضي.

(2) نسخة منفردة مجلدة على حدة، من محتويات الخزانة العامة بالرباط. وهي مكتوبة بخط جميل داخل جداول ملونة وفي أولها بعد البسملة والصلاة (ترجمة) كما يعبر النساخون عندنا أي زخرفة مكتوب داخلها (أنجم السياسة للقاضي أبي عبد الله المالقي) وتمتاز هذه النسخة بطرر وتعليق مفيدة جدا، ويمكن أن يستخرج منها شرح للقصيدة، ويظهر أنها مما كتب في أوائل هذا القرن، فهي حديثة جدا، وتقع في إحدى عشرة صفحة لأن بين أياتها بياضا كبيرا خصص لكتابة ماخف من الشروح.

(3) نسخة تحمل عنوان أنجم السياسة للقاضي ابن أبي عبد

الله المالقي مكتوبة بخط مغربي جميل، وتقع في سبع صفحات وهي حديثة كذلك، من محتويات الخزنة العامة أيضا.

(4) نسخة أخرى كتب بهامشها مانصه : «وهذه القصيدة لعلها لأبي عبد الله المالقي تسمى بأنجم السياسة» وخطها لابأس به، وتقع في أربع صفحات، وربما كانت مما نسخ في القرن الماضي، وهي كذلك من محتويات الخزنة المذكورة.

(5) نسخة لاتحمل عنوانا ولانسبة، وخطها مغربي جميل، تقع في خمس صفحات، وربما رجعت إلى القرن الماضي، وهي للخزنة العامة أيضا.

(6) نسخة تلوح عليها أماراة القِدم، ولكنها لاتتجاوز القرن الماضي، خطها لابأس به. وتبتدىء من البيت الخامس عشر، وتقع في أربع صفحات، وبآخرها هذه الجملة : «انتهت القصيدة العجيبة، في نصيحة المقام السلطاني للامام العلامة الأديب البارع لسان الدين ابن الخطيب السلماني رحمه الله تعالى وجدد عليه رحمته بمنه ويمنه، وحوله وطوله» وهي بالخزنة العامة كذلك.

(7 و 8) نسخة شرح الدمناقي، ونسخة مقامة حضرة الارتياح وهذه مطبوعة، وسبق الكلام عليهما.

ولعل القارئ قد لاحظ أن بعض هذه النسخ فيها تسمية القصيدة بأنجم السياسة وبعضها خال من التسمية، كما أن الشرح المجهول الذي قدمنا الكلام عليه سماها السياسة المالقية، ونشير هنا

إلى أن اسم أنجم السياسة مأخوذ ولاشك من البيت الذي يقول
فيه ناظمها :

هاذي (السياسة) لاحت بعض (أنجمها)

ماكل نجم رصدناه قصدناه

وبعد فهذا هو النص الكامل لقصيدة أنجم السياسة، مصححا
مقابلا على جميع النسخ المذكورة، ومعلقا على بعض أبياته بما يبين
المعنى، ويعرب عن المقصود، حين يكون التعليق لا بد منه :

(1) يَا أَيُّهَا الْمَلِكُ الْبَاهِي مَحْيَاهُ
أَنْتَ الَّذِي تَأَلَّفَ الْأَطْعَانُ مَغْنَاهُ

(2) أَمَّا مَقَامُكَ فَهُوَ الْغَوْثُ إِنْ قَصِدْتَ
دَارَا أَمْرِيءَ بِحُرُوبِ الضِّيمِ دُنْيَاهُ
(3) وَجُودُكَ كَفَكَ جُوداً⁽¹⁾ فِيهِ غُنْيَةٌ مِنْ

قَدْ أَجْدَبْتَ مِنْ قِوَامِ الْعِيشِ يُمْنَاهُ
(4) بِحُسْبِكَ⁽²⁾ النِّصْرُ مِنَ الْوَالِكِ أَصْبَحَ قَدْ

وَالَاهُ حَبَاءً، وَمِنْ عَادَاكَ عَادَاهُ
(5) وَمَا عَسَى تَبْلُغُ الْأَقْوَالُ فِي مَلِكِ
الْجَدِّ مَلِكُهُ وَالْجَدُّ وَالَاهُ⁽³⁾

(1) وجود الأولى بالضم الكرم، والثانية بالفتح : المطر.

(2) في جميع النسخ فحسبك بالفاء وفي طرّة احداها بحسبك بالياء نسخة هي أنسب

(3) في جميع النسخ ولا له بالشرير وما اخترناه هو ما في النسخة السادسة

- (6) اليمُّ راحته والحلم راحته⁽¹⁾
والأمن ساحتها واليمن لقياءُ
- (7) والمجد منصبه والحمد مكسبه
والسعد يصحبه والوفد يغشاه
- (8) لو الأقاليم عمّ الجورُ سبعتها
واستجدته لجلاؤه وأجلاه
- (9) جمعنا من تفاريق البلاد فلم
يفت لنا أمل إلا جمعناه
- (10) وخلف كل فتى منا فراخُ قطا
ما حظهم منك إلا ما جلبناه
- (11) ثغر ملكت بسيف العدل أقربه
هلاً ملكت⁽²⁾ بسبب الفضل أقصاه
- (12) إن الملوك على ماغاب غالبة
بالفضل ثوليه أو بالهول تغشاه
- (13) وما على بلد أن لا تحلّ به
ومن يدريك وفي الفضل وافاه
- (14) من يقصد المكر بالسلطان ثم يرى
أن الصنائع تحميه تحاماه

(1) في النسخة الثانية : عاداته

(2) يعني وصف الكرم الذي لأجله يقصده الضيوف و السبب بالباء العطاء وفيه
مع سيف جناس

- (15) وكيف يخذل عبد عند نائبة
مولى كفته هموم العيش كفاه
- (16) ياسيداً أحضرثنا دار مآدبة
على موائد للإكرام دعواه
- (17) لابد من شكر مأوليت من نعم
فالشكر فرض ومن أبداه أذاه
- (18) والعبد يعجز عن شيء يوصله
لشكر مولاه الأ نصح مولاة
- (19) لا يمنعك علم قد سموت إلى
أعلاه من أن ترى صبا بأدناه
- (20) والنفس محجوبة عنها سعادتها
فرب⁽¹⁾ ما حقرته ليس الاله
- (21) ولؤلؤ الحكمة المكنون في صدف
خذ مأتى منه واطرح ماتغشاه
- (22) لا تکرهن شراباً حل في خزف
ليس الإنا ذائه مأنت تسقاه⁽²⁾
- (23) ما الملك إلا عقيم لا ولى له
مستهدف للأعادي من تولاة

(1) في بعض النسخ لعل ما حقرته وفي الرابعة لعل ما أخطرت له ليس إياه

(2) معناه خذ الحكمة ولا تنظر من أي وعاء خرجت

- (24) فاحفظ بعدل وفضل زور طائره
فالفضل والعدل إن تنظر جناحه
- (25) واجف الجفا وتوق الظلم أجمعه
فليس يسعد إلا من توقاه
- (26) ولاتذر دعوة المظلوم سائبة
لاسيما ان يكن من لاله⁽¹⁾ جاه
- (27) إذا تعمدت إنسانا بمظلمة
ولم يجد ناصراً فالناصر الله
- (28) وارفع يد العامل العادي الذي كثرت
به إليك الشكايا من رعاياه
- (29) لا قرب الله دار المرء يجعلني
أبيع من أجله ديني بدنياه
- (30) وشاور العلماء المستضاء بهم
فإن معذرة السلطان شوره
- (31) وكل أمر له قوم به عرفوا
فانذب لكل مهم أهل بلواه
- (32) لا يعرف الشوق إلا من يكابده⁽²⁾
جئنا به مثلاً كما سمعناه

(1) هذا البيت ساقط من النسخة الأولى والثانية.

(2) هذا صدر بيت سائر وعجز : ولا الصباية إلا من يعانها

- (33) وَفَرَّ جُنُودَكَ بِالْأَرْزَاقِ تُوسِعُهَا
فَالزَّرْعَ يَزْكُوا إِذَا وَفَرَتْ سُقْيَاهُ
- (34) وَافْعَلْ بِهِمْ وَادْعَا مَا أَنْتَ فَاعِلُهُ⁽¹⁾
فَأَنْتَ يَوْمَ اشْتَعَالَ الْحَرْبِ تَجْزَاهُ
- (35) وَارْزَعْ الرِّعِيَةَ فِي ضَيْقٍ وَفِي سَعَةٍ
وَرُدِّهِمْ لَطَرِيقِ الرِّشْدِ إِنْ شَاهُو
- (36) وَلَا تُحْمِلْهُمْ إِصْرًا وَلَا رَهَقًا
فَإِنَّهُمْ فِي اضْطِرَابِ الْحَالِ أَشْبَاهُ⁽²⁾
- (37) وَلِلرِّسَائِلِ ذَا عَقْلٍ وَمَعْرِفَةٍ
بِالْكِتَابِ إِنْ كُنْتَ لِلْإِسْرَارِ تَرْضَاهُ
- (38) وَاخْتَرَهُ بَرًّا سَلِيمَ الصَّدْرِ وَاسِعَهُ
فَالْمَالِ وَالرُّوحِ فِي مَضْمُونِ يُمْنَاهُ
- (39) وَحَاجِبِ الْمَلِكِ إِنْ فَكَّرْتَ حَاجِبَهُ⁽³⁾
فَانْظُرْ لَهَا كَيْأَ طَلَقَا مُحْيَاهُ
- (40) إِنْ قُلْتَ بِأَبْكَ مَعْنَى فَهُوَ لَفْظُهُ
أَوْ قُلْتَ بِأَبْكَ لَفْظَ فَهُوَ مَعْنَاهُ

(1) أي في حالة الأمن

(2) في النسخة الثانية أشياء بالياء وكب عليا : جمع شياه الذي هو جمع شاة يعني أن الايالة كالغنم والأمير راعيها فإذا حملها مالاتطبق ضيعها وضاع هو بسبب ذلك

(3) أي هو له كحاجب العين

- (41) وَلِ الْجَبَايَةِ مِنْ قَلَّتْ جَنَائِثُهُ
 فِي مَالِهِ⁽¹⁾ وَرَبَّتْ فِي الْيُسْرِ كَفَّاهُ
- (42) فَطَبَعَهُ مَانِعَ تَبْذِيرٍ حَاصِلَهَا
 وَمَالُهُ رَاقِعٌ تَمْزِيقٌ عُذْوَاهُ
- (43) أَمَرَ عَلَى الْجَيْشِ مِنْ تَرْجُو كَفَايَتَهُ
 وَدَعَّ سَوَاهُ وَإِنْ نَاجَتْكَ قُرْبَاهُ
- (44) فَرَايَةُ النَّصْرِ مَكْتُوبٌ بِطَرَّتِهَا
 بَيْتٌ عَلَى إِثْرِ هَذَا قَدْ كَتَبْنَاهُ
- (45) مَالِ الْجَبَانِ وَمَالِي لَسْتُ أَعْرِفُهُ⁽²⁾
 أَمَّا الشَّجَاعُ فَيَهْوَانِي وَأَهْوَاهُ
- (46) أَجْعَلْ لِنَفْسِكَ جَاسُوساً تُفِيدُكَ مَا
 يَدُورُ فِي النَّاسِ عَيْنَاهُ وَأُذْنَاهُ
- (47) وَاحْذَرُهُ أَنْ يَجْعَلَ التَّعْرِيفَ مَكْسَبَهُ
 وَذَا التَّحَدُّرِ بِالْإِغْنَاءِ تَكْفَاهُ⁽³⁾
- (48) لَا تَسْخَرَنَّ بِأَمْرِ هَانَ أَوَّلِهِ
 إِنْ الْحَرِيقُ بَقْدَحِ الزَّندِ مَبْدَاهُ
- (49) اسْتَغْمِلِ الْمَاجِدَ الْمَرْهُوبَ جَانِبَهُ
 وَحِطْ بِالْعَمَلِ الْمَلْحُوظِ عَلَيْهِ

(1) أي مليا غير مسرف في ماله

(2) في بعض النسخ لست نسبته

(3) يريد اغن الخبر ليلا يجعل وظيفه وسيلة للكسب.

- (50) فَالطَّرْفُ أَنْ تَخْلُ عَنْ قَيْدِ قَوَائِمِهِ
أُزْرَى بِإِثْسِهِ عَدَوًّا فَأَعْيَاهُ
- (51) عَلَّقَ بِعَفْوِكَ مَنْ يَجْنِي عَلَيْكَ كَمَا
تَعَلَّقَتْ بِطَبِيبِ الْوَقْتِ مَرْضَاهُ
- (52) فَالضَرْبُ⁽¹⁾ لِلْعَبْدِ أَدْنَى مَا يَلِيقُ بِهِ
وَالْعَفْوُ لِلْحَرِّ أَعْلَى مَا تَوْحَّاهُ
- (53) لَا تَسْفِكَنَّ دَمًا إِلَّا بِوَاجِبِهِ
فَمَنْ أَرَاكَ دَمَ الْعُدْوَانِ أُرْدَاهُ
- (54) وَلَا بَنَ عَبَّاسَ الْحَبْرِ الَّذِي شَهَرَتْ
عُلُومُهُ مَذْهَبٌ فِيهِ عَرَفْنَاهُ⁽²⁾
- (55) إِنْ أَظْلَمَ الْخَطْبُ وَاعْتَصَصَتْ جَلِيَّتُهُ
وَأَشْكَتْ مِنْ طَرِيقِ الْعِلْمِ فُتْيَاهُ
- (56) سَلَّمَ أُمُورَكَ لِلرَّحْمَانِ مُحْتَسِبًا
وَارْضَ الْقَضَاءَ فَمَنْ يَرْضَاهُ أَرْضَاهُ
- (57) وَاصْبِرْ فَمَا شِدَّةٌ إِلَّا لَهَا فَرْجٌ
وَرَاكِبُ الصَّبْرِ لَا تَكْبُرُ مَطَايَاهُ

(1) في أكثر النسخ فالذهب للعبد، ونسخة الضرب أولى لأنها تتضمن معنى تكرر في الشعر العربي مثل : الحريحي والعصى للعبد..

(2) مذهب ابن عباس في قاتل النفس أنه لا تقبل له توبة أخذاً من الآية (ومن يقتل مؤمناً متعمداً فجزاؤه جهنم) الآية، ولكن الجمهور على خلافه وحمل الآية على المبالغة في الزجر

- (58) اِرْدَعْ بَعْدَكَ مِنْ طَمَّتْ بَوَائِقُهُ
وَارْفُقْ بِمَنْ نَدَرْتَ مِنْهُ خَطَايَاهُ
- (59) وَدَاراً عَقُوبَةً مَنْ قَدْ ظَلَّ مُسْتَتِراً
كَمَا إِذَا أَحْدَثَ السَّنُورُ غُطَاهُ
- (60) لَا تَأْمَنْ مِنَ الْمَوْتُورِ بِائِقَةٍ
فَمَا نَسَاهُ مَدَى الْأَيَّامِ أَنْسَاهُ⁽¹⁾
- (61) وَاعْطِ نَفْسَكَ حِظاً مِنْ أَرَاخَتِهَا
فَالنَّفْسُ بِوَحْشِهَا كَذٌّ وَإِكْرَاهُ
- (62) وَإِنْ سَمَا لَكَ شَوْقٌ فِي مُخْذَرَةٍ
أَوْ شَادَنْ كُجِلَتْ بِالسَّحْرِ عَيْنَاهُ
- (63) فَانْكُثْ هَوَاهُ وَلَا تُظْهِرْ مَحَبَّتَهُ
فَالْحُبُّ ذُلٌّ وَعِزُّ الْمَلِكِ يَأْبَاهُ
- (64) إِنْ السَّعْيَاةَ عَارَ فَاجْفُ صَاحِبَهَا
وَفَرَّ مِنْهُ فَإِنَّ اللَّهَ أَخْزَاهُ
- (65) وَزَارِعُ الْخَيْرِ مِنْ يُحِبُّهُ شَارِكُهُ
وَزَارِعُ الشَّرِّ مِنْ يُحِبُّهُ سَاوَاهُ
- (66) وَادْكُرْ يَتِيماً وَمَسْكِيناً وَأَرْمَلَةً
فَمَنْ تَذَكَّرْتَهُ فَالضَّرُّ يَنْسَاهُ⁽²⁾

(1) الموتور صاحب الثأر، والنساء بالفتح التأخير أي أن طول المدة لا ننسيه ثاره.

(2) المراد من تذكرته بالإحسان والمواساة.

- (67) وَاَمْدُدْ يَدَ الْبِرِّ وَالرَّحْمِ لَذي كَبَرٍ
دَنَتْ خُطَاهُ لِدَهْرٍ قَدْ تَخَطَّاهُ
- (68) تَفَقَّدَ السَّجْنَ فَهُوَ الْقَبْرُ مَيِّتُهُ
حَبِيٍّ وَأَحْيَاؤُهُ أَمْثَالُ مَوْتَاهُ
- (69) مَاكُلُّ مُعْتَقِلٍ بِالْعَدْلِ مُعْتَقَلٌ
كَمْ سَاجِنٌ غَيْرُهُ وَالسَّجْنُ وَاتَاهُ
- (70) لَا تُنْكِرِ الظُّلْمَ مِمَّنْ دَامَ فِي عَمَلٍ
فَإِنْ طُولَ مَدَاهُ فِيهِ أَطْفَاهُ
- (71) وَاعْزِلْ عَلَى الْفَوْرِ مِنْ أَسْخَطَتْ حَالَتَهُ
وَمُهِمَّلاً وَلِ تَرْضِيهِ وَتَرْضَاهُ
- (72) خَزَانَةُ الْكُتُبِ أَكْثَرُ مِنْ ذَخَائِرِهَا
فَإِنْ أَبْهَتَ السُّلْطَانُ ذُخْرَاهُ⁽¹⁾
- (73) وَاجْلُبْ إِلَيْهَا دَوَائِينَ الْعُلُومِ وَمَا
يُعَدُّ مِنْ أَغْرَبِ التَّصْنِيفِ مَنْحَاهُ
- (74). الْخَطُّ وَالضَّبْطُ مِنْهَا رَوْضَةُ أَنْفٍ
مِمَّا رَوَاهُ أَخُو جِدْقٍ وَرَوَاهُ
- (75) فَالْعِلْمُ إِنْ لَمْ يَكُنْ فِي الصَّدْرِ أَجْمَعُهُ
فَفِي الْقَرَاطِيسِ كُبْرَاهُ وَصَغْرَاهُ

(1) كانت عناية الموحدين بجمع الكتب عظيمة وكان لخزانة الكتب عندهم ولاية خاصة لاتستند إلا لكبار العلماء، وانظر ما فعله يوسف بن عبد المومن في هذا الصدد بكتاب المعجب ص 144

- (76) وكلُّ ما جمعت كفاك من نشبٍ
أو صامتٍ ولو أن الرمل حاكاهُ
- (77) بدَّده في بدد⁽¹⁾ الأعداء عنك وقل
ليوم سوءٍ رفعنا ما جمعناه
- (78) هاذي السياسة لاحث بعض أنجمها
ماكل نجم رصدناه قصدناه
- (79) نسيم علم تمشي في ربي أدبٍ
لو كل وصف وصفناه عصفناه
- (80) شكراً ونصحاً نفضنا منهما⁽²⁾ جرباً
وبعض ماقد نفضناه رفضناه
- (81) تلك المكارم لاقعبان من لبن⁽³⁾
عقل تؤديه أقلام وأفواه
- (82) اليوم قول وفعل والجزاء غداً
ويلاه من لم يفكر فيه ويلاه
- (83) كأن مانحن فيه لم يكن أبداً
ومائصير إليه ما فقدناه
- (84) تمر أعمارنا مر السحاب ولا
وقت لنا بسوى الدنيا عمرناه

(1) أي في تفريقهم

(2) جمع جراب

(3) هذا صدر بيت مشهور لأبي الصلت الثقفي وعجزه : شيبا بماء فعاد بعد أبو الـ

- (85) تَجَادِبُ لِلْأَمَانِي مَالَهُ طَرَفُ
كَأَنَّمَا سَأَلْتَ عَبْدًا مَنِيَاهُ
- (86) نَبِكِي عَلَى نَزَرِ دُنْيَا إِذْ يَفُوتُ وَلَوْ
قَدْ فَاتَنَا الدِّينُ رَأْسًا مَا بَكِينَاهُ
- (87) تُمَسِّي وَتُصْبِحُ مِنْ أَمْرَيْنِ فِي غَرَرِ
ذَنْبِ رَضِينَاهُ أَوْ حِظِّ سَخِطْنَاهُ
- (88) إِذْ عَمِلْنَا بِأَعْمَالِ الْهَوَى ثَبَّتْ
وَإِنْ عَقَدْنَا لَهُ تَوْبًا⁽¹⁾ مَحُونَاهُ
- (89) وَلَا نَصِيغُ إِلَى مَاقَالٍ وَاعِظُنَا
وَإِنْ شَدَّنَا مَغْنِيًا سَمِعْنَاهُ
- (90) الدَّهْرُ بِالْمَرْءِ مِنْ أَخْرَاهِ مَرْتَجِلُ
يَا حَسْرَتَاهُ وَلَا زَادَ لِأَخْرَاهِ
- (91) لَا عَيْشُهُ هَاهُنَا تَصِفُو مَوَارِدُهُ
وَلَا هُنَاكَ مِنَ الْأَكْدَارِ صَفَاهُ
- (92) فَكَمْ تُغَالِطُ بِالْحُسْنَى نِلْمٌ بِهَا
جَهْوًا وَأَبْعَدُ نَعْتِ السَّرِّ حُسْنَاهُ
- (93) تُخْفِي الْقَيْحَ وَقَدْ أَزْرَى بِحِشْمَتِنَا
وَالْمَرْءُ يَذَرِي مُسَمَّاهُ بِسِيمَاهُ

(1) التوب : التوبة : قال تعالى (غافر الذنب وقابل التوب) وجاءت في أكثر النسخ بالثاء المثلثة خطأ

- (94) والله والله لولا آية منعت
من القنوط⁽¹⁾ لما كنا رجونا
(95) ومالذي يرتجي من يستعين على
أغراض أعداء مولاة بنعماء
(96) للأشعرية فينا مذهب عجب⁽²⁾
ومن سعادتنا أننا اعتقدنا
(97) لو كان حتماً من الله الوعيد لنا
لم يسبق الغضب المكتوب رُحماء

(1) يشير إلى قوله تعالى (قل يا عبادي الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله)

(2) مذهب الأشعرية وأهل السنة على العموم أن الله عز وجل لا يجب عليه إثابة المطيع ولا عقوبة العاصي وإن حكم بذلك. نعم هو تعالى على لا يخلف وعده في إثابة المطيع وأما العاصي فهو في مشيئته تعالى إن شاء عاقبه وإن شاء عفا عنه، كما قال سبحانه (إن الله لا يغفر أن يشرك به، ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء) وهذا ما يعنيه الشاعر قد احتج له في البيت الأخير بمضمون الحديث الصحيح «إن رحمتي سبقت غضبي» ويخالف المعتزلة في ذلك أهل السنة فيقولون بوجوب إثابة المطيع وعقوبة العاصي، وهو قول مردود لأن الله لا مكره له، والوجوب في المسألة عرضي لا ذاتي، أي ليس عقلياً حتى يقال إنه لا يخلف. وقد قال الشاعر

واني إذا أوعدته أو وعدته تخلف أبعادي ومنجز موعدي

قصيدة الواعظ الاندلسي في مناقب عائشة الصديقية

هذه قصيدة أخرى من أروع الشعر، الذي بقي منسياً ولم يعرف طريقاً إلى النشر مطلقاً، وحتى كتب التراجم ودواوين الأدب المخطوطة بله المطبوعة، لم تتضمنه ولا أشارت إليه، فيما نعلم، بعد التتبع مدى طويلاً، وإنما هي من الوجادات المنفردة التي عثرنا عليها في بعض المجامع، فألفيناها من الأعلام النفيسة التي لا يصح أبداً أن تكون مهملة، ويخلو ديوان العرب منها.

وهي قصيدة في مناقب أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها، اشتملت على ذكر فضائلها وفضائل والدها أبي بكر الصديق، ومجادلة الخصوم المبغضين لها المتقولين عليها، ومُحاجَّتهم بالدليل من الكتاب والسنة، في إيمان صادق ودفاع حار، وبالواقع التاريخي الذي لانزاع فيه من سيرتها العطرة، وسيرة أبيها الخليفة الأول رضوان الله عليه، وكل ذلك بأسلوب بارع وبيان رفيع، ونظم محكم متين. وإلى هذا وبقطع النظر عن كل اعتبار فالقصيدة تعبر عن عاطفة إنسانية رفيعة، لأنها تتخذ موقف المساندة بجنب

سيدة شريفة أثناء أزمة هي أعنف أزمة تمر بها امرأة في حياتها،
فتنافح عنها وعن كرامتها حتى تحتفظ لها بسمعتها الطيبة وذكرها
الجميل.

ومما أبرَّ به صاحب هذه القصيدة، أنه جعلها على لسان السيدة
عائشة نفسها فبعد المطلع الذي يُؤذن بمقصوده، تخلص في البيت
الثاني إلى إعطائها الكلمة، فجعلها هي التي تُناظر وتُفاخر وتدفع
في نحور الأعداء بسلاح الحجة والبرهان الذي يُطوِّقهم الخزي
والعار، فلو أنها رضي الله عنها نطقت فعلا بشعر في الموضوع،
لما زادت على ما احتوته هذه القصيدة، وهي من هي قوة بيان
وشدة عارضة.

وهذا مما يدل على بلاغة منشئها ومقدرته البيانية، وتمكُّنه من
صناعة الشعر فضلاً عن رسوخ قدمه في المعرفة بعلم الحديث
والسيرة النبوية والتاريخ وسائر العلوم الإسلامية وإذن فمن هي هذه
الشخصية العلمية الكبيرة ؟

صاحب القصيدة

كما أهملت القصيدة أهمل صاحبها، فلم نقف له على ترجمة في
كتاب، مما وصلت إليه يدنا من كتب التراجم الأندلسية والعامة.
وغاية مانجده مذكوراً مع القصيدة هو اسمه المجرد من كل تعريف
أو تحديد لعصره بالوفاة أو غيرها، وهو يقع في كل النسخ التي

سندكرها من بعد، بصورة واحدة هكذا : أبو عمران موسى بن محمد بن عبد الله الواعظ الأندلسي.

وقد أوحى لنا هذا الوصف من أول وهلة أنه ربما (وربّ للتكثير) أطلق عليه في المشرق، لأنه لا يصح أن يعرف به وهو في بلده الأندلس، فالأندلسيون يُنسبون عادة إلى قبائلهم أو مدنها وقراهم، وقلما يجري وصف الواعظ بينهم مقصوراً على شخص بعينه. وبالعكس من ذلك فإن الشخص إذا اغترب كثيراً ما ينسى أصله وينسب إلى قطره فقط، والوصف بالواعظ معهود في المشرق متداول، منذ أن ترك وصف القاصّ الذي لم يُستعمل هو أيضاً في الأندلس ولا في المغرب عموماً.

وعليه يكون صاحبنا قد رحل إلى المشرق، وزاول هناك مهمة الوعظ فعرف بها ونُسب إلى قطره الأندلس، وتنوسي نسبه الأصيل، بل تُنوسيت ترجمته في بلده وفي المشرق، كما وقع لكثير غيره ممن رحل إلى المشرق من المغرب أو إلى المغرب من المشرق، وقد كنا أشرنا إلى هذه الحقيقة في تعريفنا بالواعظ البغدادي صاحب القصائد الوثريات الشهيرة.

وقد تحقق لنا هذا الاحتمال عندما اطلعنا على نسخة شرقية من القصيدة كتبت في مصر، وعليها سماع من الشيخ مرتضى الزبيدي شارح القاموس، متصل بناظمها. وقد جاء في آخر السماع أن الأفضل وزير مصر السنّي أجازها عليها بمائة دينار لما بلغته.

وأهمية هذا السماع عظيمة جداً، لأنه أفادنا برحلة المترجم إلى المشرق أو مصر على الأقل، حيث أُطلق عليه اسم الواعظ الأندلسي على مارجحناه آنفاً.

وحدد لنا تاريخه أو عصره على الأصح، وهو آخر القرن الخامس وأوائل السادس فإن الوزير المشار إليه توفي سنة 515⁽¹⁾

وهو الأفضل بن أمير الجيوش بدر الجمالي، وزير للمستنصر والمستعلي والآخر من خلفاء الفاطميين بمصر، وأظهر الميل للسنة، وأبطل الكثير من مراسيم الشيعة وكان من العدل وحسن السيرة على صفة جمالية⁽²⁾ فلا غرو أن يُجيزَ شاعرنا على قصيدته في مدح أم المؤمنين عائشة بتلك الجائزة السنوية التي تفوق قيمتها المعنوية قيمتها المادية، لاسيما إذا تذكرنا أن الدولة شيعية، وأن رأي الشيعة في عائشة وأبيها ليس بذاك. ولكن الرجل، وإن نشأ في هذه البيئة الشيعية وولي أعظم منصب للخلفاء الفاطميين، لم يكن مغالياً في الانتصار لمذهب الدولة، على ما ينبغي للوالي أن يكون، بل إنه كان يميل لمذهب أكثرية الرعية، وهو مذهب السنة، فكانت إجازته للقصيدة تعبيراً عن هذا الرأي فضلاً عن تقديره لها ولصاحبها. وقد ثبت في تاريخه أيضاً أنه أجرى على العالم أبي بكر الطرطوشي في الاسكندرية، دينارين في اليوم، والطرطوشي من أئمة السنة

(1) تاريخ الدولة الفاطمية للدكتور حسن إبراهيم حسن ص 175

(2) المرجع السابق

المعروفين، فهذا من أكبر الأدلة على تفتُّحه وعدم تعصبه.
والخلاصة أن صاحبنا الواعظ الأندلسي زار مصر في مدة وزارة
الأفضل، وهي تمتدُّ مابين الثلث الآخر من القرن الخامس وأواسط
العقد الثاني من القرن الذي يليه، ولعله أقام فيها طويلا، مثل الامام
الطرطوشي، فإن عبارة السماع القائلة إن الأفضل أجازَه على
قصيدته «لما بلغته» تدل على ذلك.

ولا يبعد أنه قام في مصر بنشاط أدبي مما يرتبط بصفته العلمية،
ومن ثمَّ اكتسب وصف الواعظ الذي صار حلية لازمة له، فمصر
حينئذ كانت بحاجة إلى أمثاله ممن يقفون في وجه الدعوة الفاطمية،
ويرفعون علم السنة، كمواطنه الطرطوشي، ولا شك أنه عقد
صلاتٍ مع رجالات مصر من أهل طبقته، كما يؤخذ من نص
السماع الذي ينتهي برواية القصيدة عنه؛ من طرف واعظ مثله هو
أبو طاهر عبد المنعم موهوب اليزني الواعظ.

السماع

لا يعنينا من السماع المذكور غير دلالاته التاريخية، ولذلك فنحن
لأنهم بغير هذا الجانب منه، وقد ثبت عقب النسخة الشرقية من
القصيدة الموجودة بآخر كتاب (هدايات الباري على ثلاثيات
البخاري) لعل الخلوقي مخطوط بالخزانة العامة بتطوان تحت رقم 60
وهو بخط مصطفى الحكيم الذي وصف نفسه بخادم العلم

بالأزهر، ناقلا له من خط من نقل من خط الشيخ عبد الوهاب الشبراوي الذي أنشده إياها هو وجماعة من المشايخ الشيخ مرتضى الزبيدي، بجامع شيخو العمري، بالسند المتصل إلى أبي طاهر عبد المنعم بن موهوب اليزني الواعظ : قال أنشدنا أبو عمران موسى بن محمد بن عبد الله الأندلسي لنفسه في عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها، وأجازه الأفضل وزير مصر السنّي عليها بمائة دينار لما بلغته رضي الله عنها ورحم الله القائل. وفي السند الشمس الرّملي وشيخ الإسلام زكرياء الأنصاري والحافظ ابن حجر. وهو ماين قراءة وسماع، ويليه تصحيح بخط الشيخ مرتضى قائلا :

إن الشبراوي المذكور سمع منه القصيدة هو ونحو ثلاثين نفسا ضبطت أسماؤهم على ظهر نسخة الأصل، وذلك يوم الإثنين لليلتين بقيتا من شعبان سنة 1186. ثم بخط الشبراوي سماعان لبعض من أخذها عنه، أحدهما بتاريخ ثاني شوال عام 1189، والثاني بتاسع محرم عام 1202، وبعدهما : كتبها لنفسه محمد أحمد المرصفي الشافعي سنة 1255، ومن خط المرصفي نقل مصطفى الحكيم كل ما ذكر فهو أحدث تاريخاً من هذا.

وعلى أي حال فإن هذا السماع بين القيمة الكبيرة للقصيدة، وما تلقاها به هؤلاء الأعلام من حفاوة بالغة، وهي جديرة بذلك.

نسخ القصيدة

وقفت على أربع نسخ من قصيدة الواعظ الأندلسي. الأولى منها، والتي طالت صحبتي لها مذ أصبحتُ أقدّر قدر هذه الكنوز الأدبية، هي نسختي الخاصة التي توجد ضمن مجموع خطي بمكتبتنا الكنّونية، وهي بخطٌ مغربي جميل تغلب عليه الصحة، ولايتدنى تاريخا عن القرن الثاني عشر، وقد نالت الأرضة من أطراف الصفحات الثلاث التي كتبت عليها، ولكنها لم تؤثر في نصها تأثيرا يذكر والثانية والثالثة والرابعة هي من محتويات المكتبة العامة بتطوان، وتقع ضمن ثلاثة مجاميع تحمل على الترتيب الأرقام التالية : (656) و (830) و (60) والرقم الأخير هو رقم كتاب هدايات الباري على ثلاثيات البخاري الذي تقدم الكلام عليه، وهو بخط شرقي وسط، وكذلك القصيدة والسماع الذي يوجد عقبها، وهي لا تخلو من تصحيف وتمتاز بزيادة بيت في وصف الصديق خلت منه بقية النسخ، وهو البيت 24.

أما نسختا المجموعين الآخرين فإنهما بخط مغربي لابأس به، وترجعان فيما نظن إلى القرن الماضي، وتشتملان كذلك على هَنَوات ترجع في الغالب إلى ضعف الثقافة الأدبية عند ناسخيهما، كما يمكن أن يقال في النسختين السابقتين ولو أن من يهتم بهذه الآثار لا يكون من غير أهل العلم. لكن العلم شيء، والأدب شيء آخر. وقد قابلنا هذه النسخ بعضها ببعض، واستخرجنا منها النسخة

الصحيحة في نظرنا، ونبها في التعليق على الخلاف الجوهري الذي بينها، وشرحنا كذلك ما يحتاج إلى الشرح من معانيها وألفاظها، ولا سيما إشارتها المتعلقة بنصوص الكتاب والسنة التي لا يتأتى لكل قارئ العثور عليها.

هذا، وثمّ نسخة خامسة للقصيدة بمعهد المخطوطات التابع للجامعة العربية لم نطلع عليها لأنها عُثِّت منذ مدة مع بعض المخطوطات في صناديق لضرورة ما، كما أخبرنا أحد المسؤولين في المعهد، فلم يمكن الاهتداء إليها.

وهذا نص القصيدة :

- (1) مَا شَأْنُ أُمِّ الْمُؤْمِنِينَ وَشَانِي
هُدَيِ الْمُحِبِّ لَهَا وَضَلِ الشَّانِي⁽¹⁾
- (2) إِنِّي أَقُولُ مُنْبَهًا عَنْ فَضْلِهَا⁽²⁾
وَمُتَرَجِّمًا عَنْ قَوْلِهَا بِلِسَانِي
- (3) يَا مُبْغِضِي لَاتَاتِ قَبْرِ مُحَمَّدٍ
فَالْبَيْتُ بَيْتِي وَالْمَكَانُ مَكَانِي
- (4) إِنِّي خُصِّصْتُ عَلَى نِسَاءِ مُحَمَّدٍ
بِصِفَاتٍ بَرٍّ تَحْتَنُّ مَعَانِ

(1) الشَّانِي : المَبْغُضُ

(2) عَنْ هُنَا بِمَعْنَى عَلَى كَمَا فِي قَوْلِ الشَّاعِرِ :

لَا هـ . ابْنُ عَمَلِكٍ لَا أَفْضَلْتَ فِي حَسَبِ

عَنِّي وَلَأَنْتَ دِيَّانِي فَتَخْزُونِي

- (5) وسبقتهن إلى الفضائل كلها
فالسبق سبقي والعنان عَناني
- (6) مَرِضُ النَّبِيِّ وَمَاتَ بَيْنَ تَرَائِبِي⁽¹⁾
فَالْيَوْمُ يَوْمِي وَالزَّمَانُ زَمَانِي
- (7) زَوْجِي رَسُولُ اللَّهِ لَمْ أَرْ غَيْرَهُ⁽²⁾
اللَّهُ زَوَّجَنِي بِهِ وَحَبَّانِي
- (8) وَأَتَاهُ جَبْرِيلُ الْأَمِينُ بِصُورَتِي
وَأَحْبَنِي الْمُخْتَارُ حِينَ رَأَيْتِي⁽³⁾
- (9) أَنَا بِكَرُّهُ الْعِذْرَاءِ⁽⁴⁾ عِنْدِي سُرُّهُ
وَضَجِيعُهُ فِي مَنْزِلِي قَمَرَان
- (10) وَتَكَلَّمَ اللَّهُ الْعَظِيمُ بِحُجَّتِي
وَبَرَاءَتِي فِي مُحْكَمِ الْقُرْآنِ⁽⁵⁾

(1) في الحديث أنه ﷺ استأذن نساءه أن يُمرض في بيت عائشة، فأذن له، وقالت

عائشة : قُبِضَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بَيْنَ سَحْرِي وَنَحْرِي

(2) من المعلوم أنها «ض» لم تتزوج بغيره ﷺ.

(3) في الصحيح قال ﷺ لعائشة : أريتك في المنام ثلاث ليلٍ جاءني بك الملكُ في سرقةٍ من حريرٍ، فقال هذه امرأتك، فقلتُ إن يكن هذا من عند الله يُمضِه.

(4) من المعلوم أنه ﷺ لم يتزوج بكرًا غير عائشة.

(5) أنزل الله عز وجل في براءتها عشر آيات هي قوله تعالى : «إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِالْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِنْكُمْ» الآيات 11 — 20 من سورة النور

- (11) والله خفّرني⁽¹⁾ وعظّم حرمتي
وعلى لسان نبيّه برّاني⁽²⁾
- (12) والله في القرآن قد لعن الذي
بعد البراءة بالقبيح رماني⁽³⁾
- (13) والله وبّخ من أراد تنقصي
إفكاً، وسبّح نفسه في شأني⁽⁴⁾
- (14) إني لمُحصنةُ الأزار بريئةٌ
ودليلُ حُسن طهارتي إحصاني
- (15) والله أحصنني بخاتم رُسُلِهِ
وأذلّ أهل الإفك والبُهتان
- (16) وسمِعْتُ وحيَ الله عند محمّد
من جبرئيلَ ونورهُ يغشاني

(1) بالتشديد، أمني وحماني، وفي نسختنا ونسخة. 73 خيرني بالياء.

(2) بتخفيف الهمزة

(3) يشير إلى الآية 22 من سورة النور وهي قوله تعالى : «إن الذين يرمون المحصنات الغافلات المؤمنات لعنوا في الدنيا والآخرة».

(4) يشير إلى قوله تعالى : «ولولا إذ سمعتموه قلتم ما يكون لنا أن نتكلم بهذا سبحانك، هذا بُهتان عظيم» وسبّح نفسه، هو ما في نسخه 60 وباقي النسخ فيها سبّح شأنه ولعلها تصحيف.

- (17) أَوْحَى إِلَيْهِ⁽¹⁾ وَكُنْتُ تَحْتَ ثِيَابِهِ
فَحَنَّا عَلَيَّ بِثُوبِهِ وَخَبَانِي⁽²⁾
- (18) مِنْ ذَا يُفَاخِرُنِي وَيُنْكِرُ صُحْبَتِي
وَمَحَمَّدٌ فِي حَجَرِهِ رَبِّي
- (19) وَأَخَذْتُ مِنْ أَبِي دِينَ مُحَمَّدٍ
وَهُمَا عَلَى الْإِسْلَامِ مُصْطَحِبَانِ
- (20) وَأَبِي أَقَامَ الدِّينَ بَعْدَ مُحَمَّدٍ
فَالنَّصْلُ نَصْلِي وَالسُّنَنُ سُنَنِي
- (21) وَالْفَخْرُ فَخْرِي وَالْخِلَافَةُ فِي أَبِي
حَسْبِي بِهَذَا مَفْخَرًا وَكَفَانِي
- (22) وَأَنَا ابْنَةُ الصَّدِّيقِ صَاحِبِ أَحْمَدٍ
وَحَبِيبِهِ فِي السِّرِّ وَالْإِعْلَانِ
- (23) نَصَرَ النَّبِيَّ بِمَالِهِ⁽³⁾ وَفَعَالِهِ
وُخْرُوجِهِ مَعَهُمَنِ الْأَوْطَانِ

(1) في نسخة 60 أوحى، وفي باقي النسخ يوحى، والإشارة لما في الصحيح قال رسول الله ﷺ : يا عائشة هذا جبريل يقرأ عليك السلام.. الحديث.

(2) بتخفيف همزة خباني.

(3) في الحديث : مانفعي مال مانفعي مأل أبي بكر.

- (24) ثانيه في الغار الذي سدّ الكوى⁽¹⁾
 بردائه، أكرم به من ثان⁽²⁾
 (25) وجنى العنا حتى تخلل بالعبا⁽³⁾
 زُهْداً وأذعن أيما إذعان
 (26) وتخللت معه ملائكة السما
 وأتته بشرى الله بالرضوان
 (27) وهو الذي لم يخشَ لومة لائم
 في قتل أهل البغي والعدوان
 (28) قتل الأولى منعوا الزكاة بكفرهم⁽⁴⁾
 وأذلّ أهل الكُفر والطغيان
 (29) سبق الصحابة والقراة للهدى
 هو شيخهم في الفضل والاحسان

-
- (1) جمع كوة يريد ثقباً كانت في الغار سدها أبو بكر بقطع من ثوبه
 (2) يشير إلى قوله تعالى : «ثاني إثنين إذ هما في الغار». وهذا البيت بما انفردت
 به النسخة 60
 (3) يشير إلى نزول جبريل على النبي ﷺ وعنده أبو بكر قد تخلل بعباءة وسؤال
 جبريل عنه وإجابة النبي له بأنه أنفق ماله عليه يعني حتى افتقر. وفيه أن جبريل
 أقرأه السلام من الله عز وجل وقال له إن الله تعالى يقول لك أراض أنت في
 فقرك هذا أم ساخط؟ الحديث، وقد ذكره هو وتخرجه المحب الطبري في الرياض
 النضرة.
 (4) بعد وفاة النبي ﷺ ارتدت قبائل من العرب، وامتنعت قبائل أخرى من أداء
 الزكاة فقاتلها كما قالت المرتدين. وبذلك حمى أركان الاسلام من الضياع.

- (30) والله ما استبقوا ليل فضيلة
مثل استباق الخيل يوم رهان
- (31) إلا وصار أبي إلى عليائها
فمكانه⁽¹⁾ منها أجل مكان
- (32) ويل لعبدٍ خان آل محمد
بعداوة الأزواج والأختان⁽²⁾
- (33) طوبى لمن وإلى جماعةٍ صحبه
ويكون من أحبابه الحسنان⁽³⁾
- (34) بين الصحابة والقراية ألفة
لاستحيل بنزغة الشيطان
- (35) هم كالأصابع في اليدين تواصلاً
هل يستوي كفٌ بغير بنان
- (36) حصرت⁽⁴⁾ قلوب الكافرين بوالدي
وقلوبهم ملئت من الأضغان
- (37) حُبُّ البتُول وبعلاها لم يختلف
من ملّة الاسلام فيه اثنان

(1) في نسخة 60 بمكانه بالباء، وهو تصحيف.

(2) جمع ختن وهو زوج البنت، وقد سؤى في هذا بين من يُعادي عائشة وعليها «ض».

(3) هذا تأكيد على مذهب أهل السنة وهو موالاة الآل والأصحاب جميعاً.

(4) ضاقت.

- (38) نُسَجَتْ مَوَدَّتُهُمْ سَدًّا فِي لُحْمَةٍ⁽¹⁾
فَبَنَّاوْهَا مِنْ أَثْبَتِ الْبُنْيَانِ
(39) وَاللَّهُ أَلْفَ بَيْنٍ وَدَّ قُلُوبَهُمْ
لِيُغِيْظَ كُلَّ مُنَافِقٍ طَعَّانٍ⁽²⁾
(40) رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ صَفَتْ أَخْلَاقَهُمْ
وَحَلَّتْ قُلُوبَهُمْ مِنَ الشَّنَّانِ
(41) فَدَخُلُوهُمْ بَيْنَ الْأَحْبَةِ كُفْلَةً
وَسَبَّابُهُمْ سَبَبٌ إِلَى الْحَرَمَانِ
(42) جَمَعَ إِلَاهُ الْمُسْلِمِينَ عَلَى أَبِي
وَاسْتَبَدَلُوا مِنْ خَوْفِهِمْ بِأَمَانِ
(43) وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ نَصْرَةَ عَبْدِهِ
مَنْ ذَا يُطِيقُ لَهُ عَلَى خِدْلَانِ
(44) مَنْ حَبْنِي فَلْيَجْتَنِبْ مِنْ سَبْنِي
إِنْ كَانَ صَانٍ⁽³⁾ مُحِبِّي وَرَعَانِي
(45) وَإِذَا مُحِبِّي قَدْ أَلْظَّ بِمُبْغْضِي
فَكَلَاهُمَا فِي الْبَغْضِ مَسْتَوِيَانِ

(1) في جميع النسخ : لحمه بالهاء، والتصحيح من نسخة 60.
(2) في نسختنا ونسخة 730 : طغياني، وليس يشيء. والطعان المراد بها هنا كثير الطعن والعيب.
(3) في نسختنا ونسخة 730 : صافي. ومأثبتناه هو مافي النسختين الآخرين وهو أولى.

- (46) إني لطيفة خلقت لطيب
ونساء أحمد⁽¹⁾ أطيّب النسوان
- (47) إني لأُمّ المؤمنين فمن أبى
حبّي فسوف يوء بالخُسران
- (48) الله حبيبي لقلب نبيّه
وإلى الصراط المستقيم هداي
- (49) والله يُكرم من أراد كرامتي
ويُهين ربّي من أراد هواني
- (50) والله أسأله زيادة فضله
وحمدته شكراً لما أولاني
- (51) يامن يلوذ بيت آل محمد
يرجو بذلك رحمة الرحمن
- (52) صلّ أمهات المؤمنين ولا تحذ
عنا فتُسلب حلّة الايمان
- (53) إني لصادقة المقال كريمة
إي والذي ذلت له الثقلان
- (54) خُذها إليك فإنما هي روضة
محفوفة بالروح⁽²⁾ والريحان

(1) هكذا في نسخة 60 وفي باقي النسخ : طيب.

(2) في النسخ الثلاث غير 60 : بالراح، وهو خطأ.

(55) صَلَّى الْإِلَهُ عَلَى النَّبِيِّ وَآلِهِ
فَبِهِمْ تَشْمُ⁽³⁾ أَزَاهِرُ الْبُسْتَانِ

(3) في نسخة 60 : تنم، بالنون.

القصيدة الشقراطية في مدح المصطفى

لاحظت في كتابي «أدب الفقهاء» أن مدح النبي ﷺ، مما اختص به مشائخ العلم وأدباء الفقهاء، وأنه بعد شعراء الصحابة الذين عاصروا ظهور الاسلام كحسان بن ثابت وعبد الله بن رواحة، لم يتعاط أحد من شعراء العربية الكبار في العصر الأموي والعصر العباسي هذا اللون من المدح الذي يعد فنا من فنون الشعر العربي، متفردا بما يسجله من صور البطولة والكفاح من أجل إثبات الوجود العربي وإعلان رسالة الإسلام التي أخرجت الناس من الظلمات إلى النور، وأحلت العرب محل الصدارة بين الأمم ذات التاريخ المشرق والمجد العريق، وهو حري أن يصنف في شعر السير والملاحم، ويستظهر به في مقابل الشعر القصصي الذي يوخذ على شعرنا القديم خلوه منه، لاسيما والكثير منه يقع في مطولات رائعة تستوعب ذكر أحداث السيرة النبوية، بأسلوب أدبي ممتع يتخلله الانطباع النفسي للشاعر وتجاوبه مع هذه

(*) أعيدت كتابة هذا البحث باعتماد ثلاث نسخ أخرى من القصيدة الشقراطية زيادة على النسخ الثلاث التي كتبت عليها أولا.

الأحداث، مما جعل الناس يتغنون به ويتناشدونه في المناسبات القومية والاجتماعية.

وأن ينتشر الشعر في جميع الأوساط، ويحتفل الناس به هذا الاحتفال، دليل على أنه يمس أوتار القلوب، ويعكس شعور الأمة التي قيل فيها، وأنه متميز في بابه، فهو وإن كان مدحا، ليس كسائر الأمداح، لأنه سجل حافل بالمفاخر والمآثر التي يدرك الجميع وكل فرد فرد أنها مفاخره ومآثره هو نفسه.

ومن أوائل مطولات هذا الشعر التي أشرت إليها هناك القصيدة الشقراطسية.

القصيدة وصاحبها

الشقراطسية قصيدة لامية من بحر البسيط في مدح الرسول ﷺ، واستعراض وقائع السيرة النبوية وحياة الدعوة الإسلامية منذ انبلاج فجرها إلى أن عمت أقطار المعمورة، وذلك بأسلوب شعري جميل يتراوح بين التقرير والتخييل. والتصوير والتسجيل مما يتجاوز حد الوصف وأبياتها في فتح مكة أكثر من رائعة وهي تقع في 133 بيت، وشهرت بالنسبة إلى ناظمها أبي محمد عبد الله بن يحيى بن علي التوزري المعروف بالشقراطي نسبة إلى قلعة قديمة كانت بالقرب من قفصة في تونس تسمى شقراطس، على أنه عاش في مدينة توزر، وكان من فقهاءها ونبغ في الأدب والشعر، وله كتاب «الإعلام في معجزات خير «الأنام» وغيره من الأوضاع وأخذ عنه

جماعة من أهل العلم كأبي الفضل ابن النحوي، وحج وزار وأنشد قصيدته هذه بالمدينة المنورة تجاه الروضة الشريفة، وكانت وفاته في ربيع الأول سنة 466 هـ.

وتمتاز الشقراطسية بأنها من الملاحم المطولة التي فتحت باب نظم السيرة واقتحمت معركة الشعر التاريخي بنجاح، فنالت بذلك شهرة كبيرة، وتلقاها الناس بالقبول، ولم يقلل من انتشارها إلا ظهور قصيدتي البردة والهمزية للإمام البوصيري الذي تقفى خطوات الشقراطي ونسج على منواله، ولكن تاريخ الأدب نسيه أو تجاهله، على أنها خلّت مما أخذ على القصيدتين من غلو في بعض أبياتهما.

تقريظ الناس لها واهتمامهم بها

كثر الثناء على الشقراطسية والتنويه بها من جهابذة العلم وعباقره الأدب، وقدروا مجهود صاحبها سواء من ناحية السبك والصياغة، أو من ناحية المؤدى والمضمون، وهي في الحقيقة حرية بذلك وأجدر بما قيل فيها. فهذا الرحالة العبدري المعروف بعلو كعبه في الأدب والنقد يقول بعدما أوردها كاملة في رحلته مانصه : «قلت أبدع هذا الناظم رحمه الله فيما نظم، وشرف هذه القصيدة بقصده الجميل فيها وعظم، فراقت معنى ومنظرا، وشاقت حسا ومخبرا، فهي كما وصفها أبو عبد الله المصري حين قال (يشت عن معارضتها الأطماع، وانعقد على تفضيلها الاجماع، وطبقت أرجاء الأرض، وأشرقت منها في الطول والعرض).

وأبو عبد الله المصري الذي ورد ذكره في كلام العبدري هو
بلدي الشقراطسي من توزر ولكنه شهر بالمصري ويعرف بابن
الشباط وقد كان محتفلاً بهذه القصيدة رواها بالسند المتصل إلى
ناظمها، ورويت من طريقه وشرحها وخمسها وسمى تخميسه بسمط
الهدى في الفخر الحمدي وذكر العبدري مطلعها وهو هذا :

إبدأ بحمد الذي أعطى ولم تسل
وذد به ريب رين الأين والكسل
فالحمد أحلى جنى من طيب العسل
(الحمد لله منا باعث الرسل
هدى بأحمد منا أحمد السبل)

و قد أثنى العبدري على هذا المطلع وحكم له بالإجادة وهو
كذلك ولا يستغرب من ابن حبش فإنه كان على تضلعه في العلوم
راسخ القدم في الادب وله شعر ينم عن ذوقه وانطباعه.

وممن أثنى على الشقراطسية ثناء عاطراً، الشيخ أحمد بن عمار
صاحب كتاب نحلة اللبيب بأخبار الرحلة إلى الحبيب، نقل عن
الرصاص كلاماً في الاحتفال بالمولد النبوي الشريف، وما يستحسن
إنشاده من الشعر، ومنه هذه القصيدة، وذكر أبياتاً منها في هذا
الغرض. فعقب عليه ابن عمار بقوله فيها : «وهي من القصائد
العظام البديعة النظام، الرائقة المعاني الوثيقة المباني، وهي من الطراز
الأول، وعليها في هذا الباب المعول، وقد رأيت أن أثبتها هنا برمتها،

لإنقياد البلاغة في أزمته ولكونها فتحت للافتتان أبوابا. وأحكمت من نسج البديع أثوابا وطارصيتها في الآفاق، وانعقد على بركتها الاجتماع والاتفاق» ثم أتى بها كاملة وأعقبها بكلام الناس فيها وماسبق إirاده من أمثلة التخميسات التي وضعت عليها وغير ذلك.

على أن من الأدباء من شطرها ومنهم من عثرها، وتتبع ذلك يطول وأما عن شروحها من غير ما ذكر فكثير وهذا دليل ناصع على ما كان لها من شهرة واسعة وأنها اعتبرت نسيجة وحدها لما ظهرت، كما ألمعنا لذلك من قبل وأشار له الشيخ ابن عمار في سجعاته المذكورة آنفا.

نقد العبدري لها

قدمنا ماقرظ به العبدري هذه القصيدة، ونورد أيضا ملاحظته على بعض أبياتها، إذ كان ناقدا قلما يسلم من وخزاته أحد، وإليك ماقاله بإثر كلامه السابق في نقديها «على أنه رحمه الله تعالى قد أكثر فيها لأجل الصناعة التصنع، وتكلف منها ماهو بعيد المرام، شديد التمتع، واعترض في كل معنى عرض، وربما أغرق النزع فخالف الغرض، كقوله (فويل مكة من آثار وطأته) البيت، وقوله : (وحل بالشام شؤم غير مرتحل) وما جرى هذا المجرى من كلامه رحمه الله ولكن قصيدته بالجملة قد حلت من البلاغة في حصن ممنع، وجلت وجهها زهاه الحسن أن يتنقع⁽¹⁾ فإن أنكرت من وصفها قولا، أو

(1) هذا تعبير مقتبس من عمر بن أبي ربيعة في بيت من قصيدة عينية يقول فيه :
ولما تفاوضنا الحديث وأسفرت وجوه زهاه الحسن أن تتقنعا

سمعت في مدحها تخصيص لولا، أحردت متأملة، وأنشدت متمثلة :

ماسلم البدر على حسنه
كلا ولا الظبي الذي يوصف
البدر فيه كلف ظاهر
والظبي فيه خنس يعرف...

وهذا الذي انتقده العبدري من قول الشقراطسي لايتوجه عليه إذا استحضرنا أنه يتكلم على مكة، وهي في قبضة المشركين، فالويل منصرف إليهم وليس لها، وكذا القول في الشام، ما حل بها من الشؤم، إنما هو لمن حل بها من الروم لا بها أما التصنع ويعنى به صناعة البديع فإنه كان حلية الكلام، وحلبة التباري بين الأدباء في تلك العصور، والناقد نفسه لم يسلم منه في كثير من كلامه، وقد رجع فأقر بتفوق القصيدة في مجال البلاغة، والحق هو هذا الذي وقع عليه الانفصال.

نسخ القصيدة التي قابلناها عليها

بيدنا للشقراطية ست نسخ كاملة إحداها مخطوطة من القرن التاسع الهجري أو العاشر على الأكثر فيما يظهر وهي في خمس صفحات كبيرة من ستة وعشرين وسبعة وعشرين سطرا.

ومدادها فاتح، وبعض أبياتها وهي التي تكون بمثابة الفصل بين موضوع وآخر، مكتوبة بالأحمر وكذا بعض الاعلام وإسم الجلالة بالخصوص، وبعضها الآخر بالأخضر، وهي مشكولة شكلا تاما

وصحيحها وبهامشها كلمات تشير إلى اختلاف النسخ في بعض الأبيات مما يدل على أنها نسخة مقابلة غيرها فيمكن اعتمادها باطمئنان.

والثانية والثالثة هما نسختا رحلتي ابن عمار والعبدري، والأولى مطبوعة في الجزائر سنة 1322 هـ = 1904 م والثانية مطبوعة في الرباط سنة 1968 بتحقيق الأستاذ الكبير محمد الفاسي.

والرابعة نسخة كتاب المنهاج الواضح في تحقيق كرامات أبي محمد صالح المطبوع بمصر سنة 1352 هـ = 1933 م وهي ختام الكتاب، وقد جاء في آخرها ببيان أحدهما في الصلاة على النبي ﷺ والثاني يتضمن تسمية الناظم، وهما مثل البيتين اللذين يضافان إلى قصيدة البردة للبوصيري في الصلاة عليه ﷺ، ويظن أن الباعث عليهما خفاء عبارة الصلاة التي ختمت بها كل من القصيدتين لصياغتها الأدبية البليغة فعبّر صاحبا البيتين بعبارة صريحة في الصلاة يفهمها الجميع. وعلى كل فهذان البيتان المشار إليهما ليسا من القصيدة بحال.

والخامسة نسخة كتاب نهاية الأرب للنويري، طبعة مصر سنة 1374 هـ = 1954 م تصويرا عن طبعة دار الكتب. وقد جاءت في آخر الجزء الثامن عشر منه، وهذه نسخة وقع فيها اضطراب وخلط بين أبياتها بحيث فقدت الترتيب الطبيعي الذي يجعل معانيها متساوقة منسجمة. وذلك في أربعة مواضع. الأول بعد البيت 57

حقيق أقحم ستة أبيات ابتداء من البيت 100 إلى البيت 105. والثاني بعد هذا البيت بالذات إذ أقحم البيت 64 إلى البيت 99 والثالث إثر هذا البيت إذ جاء بعده البيت 55 إلى البيت 64 والثالث بعد هذا البيت حيث أقحم البيت 106 إلى النهاية، فهي إن كان نصها سليماً في الجملة إلا أن ترتيبها لا يعتمد⁽¹⁾.

والسادسة نسخة كتاب الجديد في أدب الجريد للأستاذ أحمد البختري التونسي المطبوع سنة 1973.

وتم قطع من القصيدة مخطوطة وقفنا عليها في بعض الجامع وشروح السيرة النبوية وكتب الأمداح، ومطبوعة في بعض هذه الشروح والكتب المنشورة كشرح الزرقاني على المواهب ذكرت على سبيل الاستشهاد، وقد راجعناها عند المقابلة استئناساً بها كأنها نسخة سابعة وتم بذلك إخراج النسخة التي نقدمها للقارئ، وتصحيحها بقدر الوسع والطاقة، مع الإشارة في ذيول الصفحات إلى الاختلافات الواقعة بين هذه النسخ في الجملة، وإن كان بعضها قد يعد من خطأ الطبع في المطبوع منها والكمال لله ونشير إلى نسختنا بحرف الخاء وإلى نسخة رحلة ابن عمار بحرف العين وإلى نسخة رحلة العبدري بحرف الراء وإلى نسخة المنهاج الواضع بحرف الميم وإلى نسخة نهاية الأرب بحرف النون وإلى نسخة كتاب الجديد بحرف الجيم.

(1) نهنى إلى هذه النسخة الأستاذ الصديق بن العربي محافظ الخزانة العامة بمراكش. فله الشكر.

نصها

- (1) الحمد لله منا باعث الرسل
هدى (بأحمد) منا، أحمد السبيل
- (2) خير البرية من بذو ومن حضر
وأكرم الخلق من حافٍ ومُتَعِل
- (3) توراة موسى أتت عنه فصَدَّقَها
إنجيل عيسى بحق غير مفتعل
- (4) أخبار أخبار أهل الكتب قد وردت
عما رأوا أو رَوَوْا في الأعصر الأول
- (5) ضاءت بمولده الآفاق واتصلت
بُشرى الهواتف في الإِشراق والطفل
- (6) وصرح كسرى تداعى من قواعده
وانقضَّ⁽¹⁾ مُنكسر الأرجاء ذا مِيل
- (7) ونار فارس لم توقد وما خمدت
من ألف عام ونهر القوم لم يَسِل
- (8) ومنطق الذيب بالتصديق معجزة
مع الذراع ونطق العير والجمل
- (9) خَرَّت لمبعثه الأوثانُ وانبعثت
ثواقبُ الشهب ترمي الجن بالشُّعل

(1) في ن : وانقاض

- (10) وفي دعائك بالأشجار حيث أتت
تمشي بأمرك في أغصانها الذلل⁽¹⁾
- (11) وقلت عُودي فعادت في منابتها
تلك العروق بإذن الله لم تمل
- (12) والسرْحُ بالشام لما جئتها سجدت
شمّ الذوائب من أفنانها الخُضَل
- (13) والجذع حنّ لأن فارقته أسفا
حين ثكلى سجتها لوعة الثَّكل
- (14) ماصبرُ من صار من عين إلى أثر⁽²⁾
وحالُ من حال من حلّ⁽³⁾ إلى عطل
- (15) حيي⁽⁴⁾ فمات سكونا ثم مات لدن
حيي حنينا فأضحى غاية المثل
- (16) والشاه لما مسحت الكف منك على
جهد الهزال بأوصال لها قُحل⁽⁵⁾

(1) في ر : الدلل بإهمال الذال

(2) في ع : على.

(3) في ع و ن و ج : حال وحينئذ يقرأ عطل بكسر الطاء.

(4) في ع و ر و م : حي.

(5) في ع : نحل وفي م : محل

- (17) سَحَّتْ بِدَرَّةٍ شَكْرَى⁽¹⁾ الضَّرْعِ حَافِلَةً
فَرَوَتْ الرِّكْبَ⁽²⁾ بَعْدَ النِّهْلِ بِالْعَلَلِ
- (18) وَآيَةُ الْغَارِ إِذْ وَقِفْتَ فِي حِجْبٍ
عَنِ كُلِّ رِجْسٍ لِرِجْسِ الْكُفْرِ مُتَّحِلٍ
- (19) وَقَالَ صَاحِبُكَ الصَّدِيقُ كَيْفَ بَنَا
وَنَحْنُ مِنْهُمْ بِمَرَأَى النَّظَرِ الْعَجِلِ
- (20) فَقُلْتُ لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُنَا
وَكُنْتُ فِي حِجْبٍ سَتَرَ مِنْهُ مَسْدُلٍ
- (21) حَمَتُ لَدَيْكَ حَمَامُ الْوَحْشِ جَائِمَةً
كَيْدًا لِكُلِّ غَوِي الْقَلْبِ مَخْتَبِلِ
- (22) وَالْعَنَكَبُوتُ أَجَادَتْ حَوْكُ حَلَّتْهَا
فَمَا يُخَالِ بِخِلَالِ النَّسْجِ مِنْ تَخَلُّلِ
- (23) قَالُوا رُوجِئَتْ إِلَيْهِ سَرَحَةٌ سَتَرَتْ
وَجْهَ النَّبِيِّ بِأَغْصَانِهَا هُذُلُ
- (24) وَفِي سُرَّاقَةِ آيَاتٍ مَبِينَةٍ
إِذْ سَاخَتْ الْحَجَرُ فِي وَحْلِ⁽³⁾ بَلَا وَحَلِ
- (25) عَرَجَتْ تَخْتَرِقُ السَّبْعَ الطَّبَاقِ إِلَى
مَقَامِ زُلْفَى كَرِيمٍ قُمْتُ فِيهِ عَلِي

(1) في ع، وم : شكوى وفي ر : شكر وشكري الضرع ممتلكته لبنا.

(2) في م : فدرت

(3) في ر : رجل والحجر بكسر الحاء : أنثى الخيل.

- (26) عن قاب قوسين أو أدنى هبطت ولم
تستكمل الليل بين المر والقفل
- (27) دعوت للخلق عام المحل مبتهلا
أفديك بالخلق⁽¹⁾ من داع ومبتهل
- (28) صعدت كفيك إذ كيف الغمام فما
صوّبت إلا بصوب الواكف الهطل
- (29) أراق بالأرض تجا صوب ريقه
فحل بالروض نسجا رائق الحُلل
- (30) زهر من النور حلت روض أرضهم
زهرا من النور ضافي النبت مكتهل
- (31) من كل غصن نضير مورك خضر
وكل نور نضيد مونيخ خضيل
- (32) تحية أحيى الأحياء من مضر
بعد المضرة تروي السبل بالسبل⁽²⁾
- (33) دامت على الأرض سباغير مقلعة⁽³⁾
لولا دعاؤك بالاقلاع لم تزل

(1) في خ : للخلق.

(2) في م. ون و ج بالسبل بفتح الباء وهو المطر.

(3) في ر : مغلقة.

- (34) وَيَوْمَ زُورِكْ بِالزُّورَاءِ⁽¹⁾ إِذْ صَدَرُوا
 مِنْ يُمْنٍ كَفَكَ عَنْ أَعْجُوبَةٍ مِثْلِ
 (35) وَالْمَاءِ يَنْبَعُ جُودًا مِنْ أَنْأَمْلُهَا
 وَنَسَطَ الْإِنَاءَ بِلَا نَهْرٍ⁽²⁾ وَلَا وَشَلٍ
 (36) حَتَّى تَوْضَأَ مِنْهُ الْقَوْمُ وَاعْتَرَفُوا
 وَهُمْ ثَلَاثَ مِئِينَ جَمْعٍ مُحْتَفِلٍ
 (37) أَشْبَعَتْ بِالصَّاعِ أَلْفَا مَرْمَلِينَ كَمَا
 رَوَيْتَ أَلْفًا وَنِصْفَ الْأَلْفِ مِنْ سَمَلٍ⁽³⁾
 (38) وَعَادَ مَا شَبَعَ الْأَلْفُ الْجِيَاعُ بِهِ
 كَمَا بَدَا فِيهِ لَمْ يَنْقُصْ وَلَمْ يَحِلْ
 (39) أَعْجَزَتْ بِالْوَحْيِ أَرْبَابُ الْبَلَاغَةِ فِي
 عَصْرِ الْبَيَانِ فَضَّلْتُ أَوْجُهُ الْحِيلِ
 (40) سَأَلْتُهُمْ سُورَةَ فِي مِثْلِ حِكْمَتِهِ
 فَتَلَّهُمْ عَنْهُ حَيْنُ الْعَجْزِ حِينَ ثَلِي
 (41) فَرَامَ رَجَسٍ كَذُوبٍ أَنْ يِعَارِضَهُ
 سَخَفَ إِفْكَ فَلَمْ⁽⁴⁾ يَحْسَنْ وَلَمْ يَطْلُ

(1) الزوراء المذكورة هنا موضع بالمدينة وهو في حديث أنس عن هذه المعجزة كما في الصحيحين رأيت رسول الله، وهو بالزوراء وحانت العصر : الحديث.

(2) في ر : ولانهر.

(3) السمل بقية الماء في الإناء

(4) في ع : لم وهو كذلك لا يتزن، وفي م، و ن : بعى عي مكان بسخف افك.

- (42) مَبْجُ بَرَكِيكَ الْإِفْكَ . مَلْتَبِسُ
 مَلْجَلَجُ بَزْرِي⁽¹⁾ الزُّورُ وَالْخَطْلُ
 (43) مَبْجُ أَوَّلُ حَرْفٍ سَمِعْتُ سَامِعَهُ
 وَيَعْتَرِيهِ كَلَالٌ⁽²⁾ الْعَجْزُ وَالْمَلَلُ
 (44) كَأَنَّهُ مَنْطِقُ الْوَرَهَاءِ شَذَّ بِهِ
 لَبَسَ مِنَ الْخَبْلِ⁽³⁾ أَوْ مَسَ مِنَ الْخَبْلِ
 (45) أَمَرْتُ الْبَيْرَ بَلْ غَارَتْ لِحْبَتُهُ⁽⁴⁾
 فِيهَا وَأَعْمَى بَصِيرَ الْعَيْنِ بِالثَّقَلِ
 (46) وَأَيِسَ الضَّرْعُ مِنْهُ شَوْمُ رَاحَتِهِ
 مِنْ بَعْدِ إِرسَالِ رِسَالٍ مِنْهُ مِنْهَمِلُ
 (47) بَرِئْتُ مِنْ دِينِ قَوْمٍ لَأَقْوَامٍ لَهُمْ⁽⁵⁾
 عَقُولُهُمْ مِنْ وَثَاقِ الْغِي فِي عُقْلِ
 (48) يَسْتَخْبِرُونَ خَفِيَّ الْغَيْبِ مِنْ حَجَرِ
 صَلْدٍ، وَيَرْجُونَ غَوْثَ النَّصْرِ مِنْ هَبْلِ
 (49) نَالُوا أَذَى مِنْكَ لَوْلَا حِلْمُ خَالِقِهِمْ
 وَحِجَّةُ اللَّهِ بِالْإِعْذَارِ لَمْ تُنَلِّ

(1) فِي ر : بَرْدِي

(2) فِي م : كَلَامُ الْعَجْزِ

(3) فِي خ : الْحَبْلُ بِالْمَهْمَلَةِ وَالْخَبْلُ بِالسُّكُونِ الْفَسَادُ وَبِالْفَتْحِ الْجَنُّ

(4) فِي ن : وَاعْغُورَتْ لِحْبَتُهُ.

(5) فِي طَرَةِ خ : إِشَارَةٌ إِلَى نَسْخَةِ أُخْرَى فِيهَا : لَهُ . وَهِيَ أَنْسَبُ وَفِي ج بَرِيتُ مَكَانِ
 بَرِئْتُ . وَفِي ن غَلَلُ مَكَانِ عَقْلٍ

- (50) واستضعفوا أهل دين الله فاصطبروا
لكل معضل خطب فادح جلل
- (51) لاقى بلالٌ بلاءً من أُمّية قد
أحله الصبر فيه أكرمَ النزل⁽¹⁾
- (52) إذ أجهدوه بضنك الأسر وهو على
شدائد الإزل⁽²⁾ ثبت الأزر ولم يزل
- (53) ألقوه بطحاً بَرَمضاء البطاح وقد
عَالوا عليه صخوراً جمّة الثقل
- (54) يوحد الله⁽³⁾ إخلاصاً وقد ظهرت
بظهره كُندوبِ الطل في الطلل
- (55) إن قَدْ ظهَرُ ولِّي الله من دُبُر
قد قَدْ قلبُ عدو الله⁽⁴⁾ من قُبُل
- (56) نَفرت في نفرٍ لم ترض أنفسهم
إذ نافروا الرّجس إلا القُدس من نَفَل
- (57) بأنفس بُدّلت في الخُلد إذ بدّلت
عن صِدق بذل يبدر أكرم البَدَل

(1) في م : أكرم النول.

(2) الداهية والأمر الشديد.

(3) في م، و ن : فوحد الله.

(4) يريد به أُمّية بن خلف الذي كان يعذب بلالاً بمكة فقتله بلال في بدر.

- (58) مِنْ كُلِّ مُهْتَصِرٍ لِلَّهِ مُنْتَصِرٍ
 بِالْبَيْضِ مُخْتَصِرٍ بِالسُّمْرِ مُعْتَقِلٍ
- (59) يَمْشِي إِلَى الْمَوْتِ⁽¹⁾ عَالِي الْكَعْبِ مُعْتَقِلًا
 أَظْمَى الْكُعُوبِ كَمْشِي الْكَاعِبِ الْفُضْلِ
- (60) قَدْ قَاتَلُوا دُونَكَ الْأَقْيَالَ عَنْ جِلْدٍ
 وَجَالَدُوا بِجِلَادِ الْبَيْضِ وَالْجَدَلِ
- (61) وَصَلَّتْهُمْ وَقَطَعْتَ الْأَقْرَبِينَ مَعًا
 فِي اللَّهِ لَوْلَاهُ لَمْ تَقْطَعْ وَلَمْ تُصِلْ
- (62) وَجَاءَ جَبْرِيلُ فِي جُنْدٍ لَهُ عُدَدٌ
 لَمْ تَبْتَدِلْهَا أَكْفُ الْخَلْقِ بِالْعَمَلِ
- (63) بَيْضٌ مِنَ الْعَوْنِ لَمْ تُسْتَلَّ مِنْ غُمْدٍ
 خَيْلٌ مِنَ الْكَوْنِ لَمْ تُسْتَنَّ فِي طِيلِ
- (64) أَحَبُّ بِخَيْلٍ مِنَ التَّكْوِينِ قَدْ جُنِبَتْ⁽²⁾
 لْجَانِبٍ عَنِ جَنَابِ الْحَقِّ مُعْتَزَلِ
- (65) أَعْمِيَتْ جَيْشًا بِكَفٍ مِنْ حَصَى فَجَثُوا
 وَعَقَّلُوا عَنْ حَرَكَ النَّقْلِ⁽³⁾ بِالنَّقْلِ

(1) فِي طَرَةِ خ : إِشَارَةٌ إِلَى نَسْخَةٍ فِيهَا : إِلَى الْحَرْبِ.

(2) فِي ر : حَبِيتْ.

(3) النَّقْلُ مُحْرَكًا صِفَارُ الْحِجَارَةِ.

- (66) ودعوة بفناء البيت صادقة
غذا أُمِيَّةٌ منها شرٌّ منخِذِلٌ⁽⁴⁾
- (67) غَادَرَتْ جَهْلٌ أَبِي جَهْلٌ بِمُجْهَلَةٍ
وَشَابَ شَيْبَةً قَبْلَ الْوَقْتِ⁽⁵⁾ مِنْ وَجَلٍ
- (68) وَعَتَبَةُ الشَّرِّ لَمْ يُعْتَبَ قَتَعِطْفُهُ
مِنْكَ الْعَوَاطِفُ قَبْلَ الْحَيْنِ فِي مَهْلٍ
- (69) وَغَقْبَةُ الْغَمْرِ عَقْبَاهُ لَشَقْوَتِهِ
أَنْ ظَلَّ⁽⁶⁾ مِنْ غَمَرَاتِ الْخِزْيِ فِي ظَلَلٍ
- (70) وَكُلُّ أَشْوَسٍ عَاتِي الْقَلْبِ مُنْقَلِبٌ
جَعَلْتَهُ بِقَلْبِ الْبِئْرِ كَالْجُعَلِ
- (71) وَجَاثِمٌ بِمِنَارِ النَّقْعِ مُشْتَغِلٌ
بِجَاثِمٍ مِنْ أَوَارِ الثُّكُلِ مُشْتَعِلٌ
- (72) عَقَدْتُ بِالْخِزْيِ فِي عَطْفِي مَقْلَدَهُ
طَوَّقَ الْحَمَامَةُ بَاقٍ غَيْرَ مُنْقَلَبِ
- (73) أَمْسَى خَلِيلٌ صَغَارَ بَعْدَ نَخْوَتِهِ
بِالْأَمْسِ فِي خَيْلَاءِ الْخَيْلِ وَالْخَوْلِ

(4) في غ : منخزل، والدعوة المشار إليها هي ما جاء في الصحيح من قوله ﷺ :
اللهم عليك الملاء من قريش وسمى نفرا منهم : أبا جهل وأمية ابن خلف وعتبة
بن ربيعة وشيبة بن ربيعة والوليد بن عتبة فصرعوا كلهم في بدر.

(5) في ع : المتوت وفي ن : القوت

(6) في ن : قد ظل والمراد بعقبة : ابن أبي مُعَيْط وهو الذي القى سلا الجزور على
النبي عند سجوده فدعا عليه وعلى رفاقه.

- (74) دَامَ يُدِيمُ زَفِيرًا فِي جَوَانِحِهِ
جُنَحٌ مِنَ الشَّكِّ لَمْ يَجْنَحْ وَلَمْ يَمَلْ
- (75) يَقَادُ فِي الْقَدِّ خَنْقًا مَشْرِبًا خَنْقًا
يَمْشِي بِهِ الذُّعْرُ مَشْيَ الشَّارِبِ الثَّمَلِ
- (76) أَوْصَالُهُ مِنْ صَلِيلِ الْغُلِّ فِي عِلَلِ
وَقَلْبُهُ مِنْ غَلِيلِ الْغِلِّ فِي غُلَلِ
- (77) يَظَلُّ يَحْجَلُ سَاجِي الطَّرَفِ خَافِضِهِ
لِمَسْكَةِ الْحِجَلِ⁽¹⁾ لَامِنِ مُسْكَةِ الْحِجَلِ
- (78) أَرَحَتْ بِالسَّيْفِ ظَهْرَ الْأَرْضِ مِنْ نَفَرِ
أَزَحَتْ بِالصَّدَقِ مِنْهُمْ كَاذِبِ الْعِلَلِ
- (79) تَرَكْتَ بِالْكَفْرِ صَدْعًا غَيْرَ مَلْتَمِ
وَأَبَ عَنْكَ بِقُرْحٍ غَيْرِ مُنْدَمِلِ
- (80) وَأَفَلْتَ السَّيْفُ مِنْهُمْ كُلَّ ذِي أَسْفِ
عَلَى الْحِمَامِ حِمَاهُ آجِلُ الْأَجَلِ
- (81) قَدْ أَعْتَقَتْهُ عِتَاقُ الْخَيْلِ وَهُوَ يَرَى
بِهِ إِلَى رِقٍّ مَوْتٍ رَقَّةَ الْعَزْلِ
- (82) فَكَمْ بِيَكَّةٍ مِنْ بَاكِ وَبَاكِيَةٍ
بَفِيضِ سَجَلٍ مِنَ الْآمَاقِ مُنْسَجِلِ
- (83) وَكَاسَفَ الْبَالُ بِأَلِي الصَّبْرِ جُدَّتْ لَهُ
بَوَائِلُ مِنْ وَبَالِ الْخَزْيِ مُتَّصِلِ

(1) فِي م : مِنْ مَسْكَةٍ.

- (84) فؤاده من سَعِير الغيظ في غُلل
وعَيْنُهُ من غزير الدمع في غلل
- (85) قد أسعرتُ منه صدرًا غير مصطبر
وحملتُ منه صبرا غير مُحْتَمَل
- (86) ويومَ مكة إذ أشرفتُ في أمم
يضيئُ منها فِجَاجُ الوعث والسَهْل
- (87) خوافُ ضاق ذَرْعُ الخافقين بها
في قاتم من عَجَاج الخيل والإبل
- (88) وجحفل قَذِف الأرجاء ذي⁽¹⁾ لُجْب
عَرْمَرَم كُزْهَاء السَّيْل منجسل⁽²⁾
- (89) وأنت صلي عليك الله تقدّمهم
في بهو إشراق نُور منك مكتمل
- (90) يُنِير فوقَ أغرّ الوجه منتجب⁽³⁾
متوَج بعزیز النصر مُقْتَبِل
- (91) يسمو⁽⁴⁾ أمام جنود الله مرتدياً
ثوبَ الوقار لأمر الله مُمْتَثِل

(1) في ر : في لُجْب.

(2) في ع، وم : الليل وفي العبدرية : النسيل منسحل، وهو تصحيف.

(3) في ر و م : منتجب.

(4) في م، ون : تسمو

- (92) نَحْشَعَتْ تَحْتَ بَهَاءِ⁽⁵⁾ الْغِزِّ حِينَ سَمْتُ
بِكَ الْمَهَابَةِ فِعْلُ الْخَاصَعِ الْوَجَلِ
- (93) وَقَدْ تَبَاشَرَ أَمْلَاكُ السَّمَاءِ بِمَا
مَلَكَتْ إِذْ نَلَتْ مِنْهُ غَايَةَ الْأَمَلِ
- (94) وَالْأَرْضُ تَرْجُفُ مِنْ زَهْوٍ وَمِنْ فَرْقٍ
وَالْجَوُّ يُزْهَرُ إِشْرَاقاً مِنَ الْجَدَلِ
- (95) وَالْخَيْلُ تَحْتَالُ زَهْواً فِي أَعْنَتِهَا
وَالْعِيسُ تَنْشَالُ رَهْواً فِي ثَنَى الْجُدُلِ
- (96) لَوْلَا الَّذِي نَحَطَّتِ الْأَقْلَامُ مِنْ قَدَرِ
وَسَابِقِ مَنْ قَضَاءِ غَيْرِ ذِي حِوَلِ
- (97) أَهْلُ تَهْلَانُ بِالتَّهْلِيلِ مِنْ طَرْبِ
وَذَابٍ يَذْبُلُ تَهْلِيلاً مِنَ الذُّبُلِ
- (98) الْمَلِكُ لِلَّهِ هَذَا عِزٌّ مِنْ عُقْدَتِ
لَهُ النَّبَوَةُ فَوْقَ الْعَرْشِ فِي الْأَزَلِ
- (99) شَعَبَتْ صَدْعَ قَرِيشٍ بَعْدَمَا قَذَفَتْ
بِهِمْ شُعُوبُ شَعَابِ السَّهْلِ وَالْقَلَلِ
- (100) قَالُوا مُحَمَّدٌ قَدْ زَارَتْ كِتَابُهِ
كَالْأَسَدِ تَزَارُ فِي أَنْيَابِهَا الْعُصْلُ
- (101) فَوَيْلٌ مَكَّةَ مِنْ آثَارِ وَطْأَتِهِ
وَوَيْلٌ أُمَّ قُرَيْشٍ مِنْ جَوَى الْهَبْلِ

(5) فِي ن : تَحْتَ لَوَاءِ الْعِزِّ.

- 102) فُجِدَتْ عَفْوَا بِفَضْلِ الْعَفْوِ مِنْكَ وَلَمْ
تُلِمِّمْ وَلَا بِأَلِيمِ اللُّومِ وَالْعَذْلِ
- 103) أَضْرَبْتَ بِالصَّفْحِ صَفْحاً عَنْ طَوَائِهِمْ
طَوَّلاً أَطَالَ مَقِيلَ النَّوْمِ⁽¹⁾ فِي الْمُقَلِّ
- 104) رَجِمْتَ وَاشْبَجَ أَرْحَامُ أَتْيَحَ لَهَا
تَحْتَ الْوَشِيحِ نَسِيحُ الرُّوعِ وَالْوَجَلِ⁽²⁾
- 105) عَاذُوا بِظِلِّ كَرِيمِ الْعَفْوَذِيِّ لَطْفِ
مُبَارَكِ الْوَجْهِ بِالتَّوْفِيقِ مُشْتَمِلِ
- 106) أَزَكَى الْخَلِيقَةِ أَخْلَاقاً وَأَطْهَرَهَا
وَأَكْرَمَ النَّاسِ صَفْحَا عَنْ ذَوِي الزَّلَلِ
- 107) زَانَ الْخَشُوعَ وَقَارَّ مِنْهُ فِي خَفَرِ
أَرْقٍ مِنْ خَفَرِ الْعِذْرَاءِ فِي الْكِلِّ
- 108) وَطُفَّتْ بِالْبَيْتِ مَحْبُوراً وَطَافَ بِهِ
مَنْ كَانَ عَنْهُ قَبِيلُ الْفَتْحِ فِي شُغْلِ
- 109) وَالْكَفْرِ فِي ظُلُمَاتِ الْخِزْيِ مَرْتَكِسُ
ثَاوٍ بِمَنْزِلَةِ الْبِهْمِوتِ مِنْ زُحْلِ
- 110) حَاجَزَتْ بِالْأَمْنِ أَقْطَارَ الْحِجَازِ مَعَا
وَمَلَتْ بِالْخَوْفِ عَنْ تَخَيُّفٍ وَعَنْ مَلَلِ

(1) فِي ن : الْقَوْمِ

(2) فِي ع : وَالْخَجَلِ.

- (111) وحل آمنٌ ويؤمن منك في يمن
 لما أجابت إلى الايمان عن عجل
 (112) وأصبح الدين قد حُفَّت جوانبه
 بعزة النصر واستولى على الملل
 (113) قد طاع منحرفٌ منهم لمُعترف
 وانقاد مُنعِدٌ منهم لمُعَدِل
 (114) أَحَبُّ بِخُلة أهل الحق في الخُلل⁽¹⁾
 وعزَّ دولته الغراء في الدُّول
 (115) أمَّ الإمامة يومٌ منه مصطلم
 وحلَّ بالشام شوِّمٌ غير مرتحل
 (116) تعرقت منه أعراق العراق ولم
 يترك من الترك عظمٌ غير منثَل⁽²⁾
 (117) لم يبق للفرس ليث غير مفترس
 ولا من الحُباش جيشٌ غير مُنجفل
 (118) ولا من الصَّين صونٌ غير مُبتدل
 ولا من الرُّوم مَرَمى غير منتضل
 (119) ولا من النُّوب جِذم⁽³⁾ غير مُنجِذم⁽⁴⁾
 ولا من الزُّنج جِذْل غير مُنجِذِل

(1) في ر، و م : خلل.

(2) في ر، منثَل

(3) في ر : جزم وهو تصحيف.

(4) في ر : منجزم

- (120) ونيل بالسيف سيف النيل واتصلت
دعوى الجنود فكل بالجلاد صلي
- (121) وسئل بالغرب غرب السيف إذ شرقت
بالشرق قبل صدور البيض والأسل
- (122) وعاد كل عدو عز جانبه
قد عاذ منك يبذل غير مبتذل⁽¹⁾
- (123) بزيمة الله والايان متصل
أو من شبا النصل بالأموال متصل
- (124) ياصفوة الخلق قد اصفيت فيك صفا
صفو الوداد بلا شوب ولا دخل
- (125) ألسن أكرم من يمشي على قدم
من البرية فوق السهل والجبل
- (126) وأزلف الخلق عند الله منزلة
إذ قيل في مشهد الأشهاد والرسل
- (127) قم يا محمد فاشفع في العباد وقل
تسمع وسئل تعط عائداً وسئل
- (128) والكوثر الحوض يروي الناس من ظمأ
برح وينقع منه لافح الغلل
- (129) أصفى من الثلج إشراقاً مذاقته
أحلى من اللبن المضروب بالعسل

(1) في ر : يكل منه مبتذل ولا يظهر لها معنى.

- 130) نَحَلَّتْكَ الْوَدَّ عَلَيَّ إِذْ نَحَلَّتْكَه
أَحْبَى بِحَبِّكَ مِنْهُ (1) أَفْضَلَ النُّحْلِ
- 131) فَمَا لَجِلْدِي بِنُضْجِ النَّارِ مِنْ جَلْدِ
وَلَا لِقَلْبِي بِهَوْلِ الْخَشَرِ مِنْ قَبْلِ
- 132) يَا خَالِقَ الْخَلْقِ لَا تُخْلِقْ بِمَا اجْتَرَمْتُ
يَدَايَ وَجْهَيَّ مِنْ حُوبٍ وَمِنْ زَلَلِ
- 133) وَصَحْبٍ وَصَلَّ وَوَاصِلَ كُلِّ صَالِحَةٍ
عَلَى صَفِيكَ فِي الْإِصْبَاحِ وَالْأَصْلِ

(1) فِي ج : مِنْكَ.

تائية أبج اسحاق الالبيرج

هذه القصيدة من أروع ما قالته العرب في شعر الوصايا والحكم، وقل أن تشابهها قصيدة في هذا الباب، من حيث متانة البناء وعمق النظرة وقوة التأثير، إلا قصيدة أبي الفتح البُستي : (زيادة المرء في دنياه نقصان)، ولكن نونية أبي الفتح هذه شهيرة ومتداولة، وتجري أبياتها على الألسنة، وقد تضمنتها الدواوين الأدبية، فقلما يخلو كتاب للمنتخبات الشعرية منها. أما تائية صاحبنا الألبيري فهي مهجورة منسية، لا تكاد تُعرف، أو يلتفت إليها أحد من الباحثين وأصحاب المجموعات الأدبية والشعرية.

وهي تمتاز بالنفس الطويل، والنظرة المستقصية، والتناول المستوعب، فتقلب المعنى على جميع وجوهه وتعمق فيه وتستبطنه، ولا تترك شيئاً يخطر على البال مما يتعلق به، ألا ألمعت إليه واستعرضته في وضوح تام وبيان لا مزيد عليه، حتى إن أغراضها انحصرت في مدح العلم وتفضيله على المال، والتزهيد في الدنيا ليس غير، وهي مع ذلك تنيف على عشرة ومئة بيت، والمُدْهَش من أمرها هو هذه السلاسة التي جعلتها في بلاغتها وحسن سبكها كأنها قطعة نثرية،

ونموذج إنشائي لأحد الكتاب البالغاء، لاقصيدة شعرية مرتبطة بوزن وقافية، وما ذلك إلا لقوة عارضة صاحبها، ومقدرته البيانية، ونظمه بالسليقة لا بالتكلف.

ويرجع عهدي بهذه القصيدة إلى أيام الطلب، حين كان. الوالد — رحمه الله — يورد بعض الأبيات منها في مجلسه، ولا سيما البيت الذي يقول في آخره حاضاً على العمل بالعلم : عَلِمْتَ فَهَلْ عَمِلْتَ ؟) وهذا البيت الفذ المؤثر :

إِذَا أَلْقَاكَ فَهَمُّكَ فِي مَهَاوِ
فَلَيْتَكَ ثُمَّ لَيْتَكَ مَا فهِمْتَ

ثم بعد ذلك اطلعتُ عليها أو على ما أورده الوالد منها في شرحه لنصيحة الهلالي، وهو القسم المتعلق منها بالعلم وطلبه وآدابه والعمل به، وهو قسم طويل يكوّن وحده قصيدة كاملة، فلم أزل ألهج بأبياته وأجعلها نصب عيني في الدراسة والسلوك، إلى أن وقفت على ثلاث نسخ أخرى منها؛ سأحدث عنها فيما بعد.

وقد كنت أَلَمْتُ بها في كتابي أدب الفقهاء، في فصل الأخلاق والآداب منه، كما أَلَمْتُ بقصيدة الواعظ الأندلسي في أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها في ذلك الكتاب، ووعدت برجوعي إليها في موضوع آخر وهو هذا، إذ لا يشفي نفسي إلا إذاعة هذه القصائد ونشرها كاملة، وعدم الاكتفاء منها بالشواهد والأمثلة كما اقتضاه بحث أدب الفقهاء.

أبو إسحاق الألبيري

ترجم لأبي إسحاق القاضي عياض في «المدارك» ترجمة قصيرة قال عنه فيها : إنه من أصحاب أبي عبد الله بن أبي زمنين رحمه الله، وروى عنه كتبه، وكان فقيهاً معظماً في وقته، ولم يذكر له تاريخاً. كما ترجم له الضبي في بغية الملتبس بما لايزيد على سطر فقال : إنه فقيه فاضل، زاهد عارف، كثير الشعر في ذم الدنيا مجتهد في ذلك.

والترجمة الوافية التي وقفنا عليها له، هي ترجمة ابن الأبار في كتابه التكملة في القسم الأول المفقود من طبعة قديمة، المنشور في الجزائر بعناية ألفريد بل وابن أبي شنب ونصّها :

«إبراهيم بن مسعود بن⁽¹⁾ سعيد التّجيبى، الزاهد من أهل غرناطة، يعرف بالإلبيري ويكنى أبا إسحاق. روى عن أبي عبد الله بن أبي زمنين وغيره. وكان من أهل العلم والعمل، شاعراً مُجَوِّداً، وشعره مدوّن، وكلّه في الحكم والمواعظ والأزهاد. ومسلكه سلك أبو محمد بن العسال الطليطلي، وكانا فرسَي رهانٍ في ذلك الزمان صلاحاً وعبادة. وقد حدّث أبو إسحاق، وروى عنه ابن أخته، وأبو محمد عبد الواحد بن عيسى، وأبو حفص عمر بن خلف الهمدانيان الإلبيريان وغيرهم».

(1) في الأصل : سعد

ثم ذكر بسنده أبياتا من شعر المترجم وقال : توفي في نحو الستين والأربعمائة».

وذكره ابن سعيد المغربي في كتابه المغرب، وجعله من أهل حصن العقاب، ولذلك لم ينسبه إلى البيرة كما أنه لم يذكره بنسبه التّجيبى وإنما قال فيه :

أبو إسحاق إبراهيم بن مسعود. من المسهب : هو من حصن العقاب وكان قد اشتهر في غرناطة اسمه وشاع عمله، واتسم⁽¹⁾ بالصّلاح، وكان ينكر على ملكها كونه استوزر ابن نغرلة اليهودي، وعلى أهل غرناطة انقيادهم له، فسعى في نفيه إلى البيرة فقال شعره المشهور :

ألا قُلْ لصنهاجة أجمعين
بُدور الزمان وأُسْد العَرين
لقد زلَّ سيّدكم زلّةً
أقرّ بها أعينُ الشامتين
تخيّر كاتبه كافراً
ولو شاء كان من المسلمين
فعزّ اليهودُ به وانتخّوا
وكانوا من العِثرة الأرذلين

(1) بالأصل وارتسم، ونظن أن الصواب ما أثبتاه.

فاشتهر هذا الشعر، وثارَت صنهاجَةٌ على اليهودي فقتلوه، وعظُم
قَدْرُ أبي إسحاق... .

وبعد ذكر مقطوعتين شعريتين له، إحداهما في محل سكناه،
حصن العقاب قال : وله ديوان ملآن من أسعار زهدية، ولأهل
الأندلس غرام بحفظها.

وهذا الديوان الذي أشار له كلُّ من ابن الأبار وابن سعيد المغربي
قد نشره المستعرب الأسباني الشهير ايمليو غرسية كوميّز لأول مرة
عن مخطوطة مكتبة الإسكوريال التي تحمل رقم 404 مع مقدمة
ضافية بالأسبانية، وتعاليق، وكلمة تحليلية لكل قصيدة أو مقطّعة
من أشعاره، وفهرس عربي وآخر إسباني مفصل. وذلك في مئة
وست وثمانين صفحة.

ومن ذكر أبا إسحاق صاحبُ الروض المعطار، فقال في تعريفه
بمدينة إلبيرة : «ومنها أبو إسحاق بن مسعود الإلبيري صاحب
القصيدة الزهدية التي أولها :

تَفْتُ فَوَادَكَ الْأَيَّامُ فَتًّا

وتنحت جسمك الساعاتُ نحتًا

ثم ذكر أبياتا أخرى من شعره ولكنه لم يذكر لها تاريخاً.
وذكره أيضا أبو الحجاج البلوي في كتابه (ألف با) بعد أن أنشد
أبياتا من قصيدته التائية في تفضيل العلم على المال فقال :

وهذا الشاعر هو أبو إسحاق إبراهيم بن مسعود الإلبيري رحمه

الله، والقصيد حسن طويل، كان الأستاذ الفقيه أبو عبد الله بن سورة شيعي رحمه الله، يحمل طلبته على حفظه لجودته».

وذكره كذلك المقرئ في نفع الطيب في أماكن مختلفة، منشدا له أشعارا زهدية وغيرها، كلها مما يوجد في ديوانه.

القصيد ونسخها

تألف هذه القصيدة من مئة وثلاثة عشر بيتاً. وعند ناشر ديوان أبي إسحاق، الأستاذ غرسة كوميس أنها مئة وإثنا عشر بيتاً فقط، برغم البيت الذي يكمل ثلاثة عشر والذي قال إنه يوجد بهامش الصفحة (11) من مخطوطة الديوان، ليتخذ موقعه بين البيتين 29 و 35. وهذا البيت هو :

فراجِعْهَا ودّع عنك الهَوَيْنَا
فما بالبُطء تُدرك مأرَدَتَا

وهذا البيت يوجد في جميع النسخ التي بأيدينا، حيث ذكر الأستاذ، وإنما استبعده من القصيدة لأن صاحبها يقول في البيت الأخير منها :

وقد أردفتها ستا حسانا
وكانت قبل ذا مئة وستا

فالجميع إذن 112 بيتاً لا غير، لكن الذي عندنا في النسخة الكاملة التي نصفها فيما بعد هو مايلي :

وقد أردفتها سبعاً حساناً
وكانت قبل ذا مئة وستاً

فهي على ذلك (113).

ونسخ القصيدة التي بيدنا الآن أربع :

(1) نسخة شرح الوالد على نصيحة الهلالي⁽¹⁾، وهي تقتصر على 42 بيتاً، وتبتدىء من قوله : (أبا بكر) أي أنها إنما تحوي القسم العلمي منها. وقد قدّمها رحمه الله بقوله : «من قصيدة للإمام أبي إسحاق إبراهيم بن مسعود بن سعيد التجيبي ضمّنها وصية جامعة، ونصيحة لامة لابنه أو ابن أخيه رحم الله الجميع، ونصّها — وبعدما أوردتها قال — : «انتهى المراد منها».

فيلاحظ أولاً أنه سمّى جده سعيداً لاسعداً كما ورد في التكملة، وأنه نسبه إلى قبيلة تُجيب ولم يعرج على نسبته البلدانية، ويظهر أن ذلك هو الصواب، لأنه في الأصل من حصن العقاب كما سبق عن ابن سعيد، فنسبته إلى البيرة طارئة. ويلاحظ ثانياً أنه عيّن أبا بكر الذي وجهت إليه القصيدة بابن الشاعر أو ابن أخيه، وإذا لم يكن في الترجمة التي نقلناها عن ابن الآبار تصحيف، فربما كان أبو بكر هذا ابن أخت الشاعر الذي هو أحد الرواة عنه. على أن تصحيف ابن أخيه بابن أخته ممكن ومحمّل جداً. وفي النسخة التي

(1) طبع هذا الشرح مؤخراً في مصر باسم النسق الغالي والنفس العالي شرح نصيحة أبي العباس الهلالي للشيخ عبد الصمد كنون في 640 صفحة.

تأتي بعد هذه تعينه بابه على سبيل الجزم والقطع، ويعد في نظرنا أن يكون ابنه، وهو الذي يأتي في القصيدة أنه يوجه إليه ذلك العتاب المر، وإن كان على سبيل الفرض والتقدير، وليس من المعهود أن يخاطب الولد والده بذلك النقد اللاذع، أما إن كان ابن أخيه أو أخته فقد يمكن أن يتجرأ عليه بذلك، وإن قالوا : الغم أحد الأبوين.

وعلى كل حال فقد توقف ناشر الديوان في تعيين أبي بكر من هو، لأن القصيدة في الديوان لم تصدر بشيء في هذا الصدد.

(2) نسخة أطلعني عليها الأخ الأستاذ الحاج أحمد بن شقرون عميد كلية أصول الشريعة بالنيابة، وقد نقلها حسبما ذكر لي من أوراق تالفة، وهي تبدىء كذلك من قوله (أبا بكر) وتحتوي على (63) بيتاً، فتزيد بواحد وعشرين بيتاً على التي قبلها، وتنقص بخمسين بيتاً عن النص الكامل للقصيدة، وأكثر ذلك من قسم التزهيد وذم المال. وجاء في تقديمها : «قال أبو إسحاق إبراهيم ابن مسعود ينصح ولده أبا بكر ويحثه على العناية بالعلم» فذكر اسمه بدون نسبة أصلاً، كما فعل صاحب المغرب، وعين المنصوح المدعو أبا بكر فجعله ولده من غير تردد.

(3) نسخة كاملة توجد ضمن مجموع من كتب الخزانة العامة بتطوان رقم (536) وهو للعلامة أحمد بن عبد الرحمان بن عاشر الحافي السلوي المتوفى سنة 1163 يشتمل على تقايد ورسائل

مهمة، وجلّه بخط يده. فتاريخها إذن يرجع إلى القرن الثاني عشر، ومع أن ناسخها من أهل العلم كما قلنا، فإنه قد تقع له بعض الهفوات، وأعظمها أنه كرر أربعة أبيات منها وردت في وسطها فذكرها مرة أخرى في آخرها ولم ينتبه لذلك. على أن إثباتها في وسط القصيدة إنما جاء إلحاقاً بالهامش، فلعله وقف على نسختين منها، إحداهما وقعت فيها هذه الأبيات أخيراً وهي التي نقل عنها أول مرة، والثانية وقعت في الوسط فألحقها ولكنه لم ينبه على ذلك. وقد اتبعنا نحن مافي الديوان من إثباتها في وسط القصيدة وحذفناه من الآخر.

(4) نسخة الديوان، وهي نسخة كاملة أيضاً باستثناء الملاحظة السابقة المتعلقة بالبيت الذي استبعده منها الناشر وقوفاً مع ما جاء في آخر بيت من قوله : «وقد أردفتها ستا حسناً» وهي نسخة صحيحة محققة بما عرف عن الأستاذ كوميّز من معرفة دقيقة بالعربية وأدبها، إلا بعض الألفاظ القليلة سننبه عليها في التعليق، وغالبها من اختلاف النسخ أو التطبيع.

ونشير إلى هذه النسخ : الأولى منها بحرف (ل) والثانية بحرف (ش) والثالثة بحرف (ت) والرابعة بحرف (د).

وهذا هو النصّ الكامل للقصيدة، وقد فصلنا بين أقسامها بـنجوم، وهذه الأقسام أكثر ما تدور — كما أسلفنا — على مدح العلم والترغيب فيه، وتفضيله على المال والتزهيد في الدنيا وعتاب النفس :

- (1) تَفْتُ فَوَإِذَاكَ الْيَوْمَ فَتاً
وَتَنَحْتُ جِسْمَكَ السَّاعَاتُ نَحْتاً
- (2) وَتَدْعُوكَ الْمَنُونُ دَعَاءَ صَدَقِ
أَلَا يَا صَاحَ أَنْتَ أَرِيدُ أَنْتَا
- (3) أَرَاكَ تُحِبُّ عِرْساً ذَاتَ عَذْرِ
أَبْتَ طَلَّاقَهَا الْأَكْيَاسُ بَتّاً
- (4) تَنَامُ الدَّهْرَ وَيُحَكُّ فِي غَطِيطِ
بِهَا حَتَّى إِذَا مَتَّ انْتَبَهَتْهَا
- (5) فَكَمْ ذَا أَنْتَ مَخْدُوعٌ وَحَتَّى
مَتَى لَا تَرْغَبِي عَنْهَا وَحَتَّى
- (6) أَبَا بَكْرٍ دَعْوَتُكَ لَوْ أَجَبْتَا
إِلَى مَا فِيهِ حَظُّكَ إِنْ عَقَلْتَا⁽¹⁾
- (7) إِلَى عِلْمٍ تَكُونُ بِهِ إِمَاماً
مُطَاعاً إِنْ أَمَرْتَ وَإِنْ نَهَيْتَا
- (8) وَيَجْلُو⁽²⁾ مَابَعَيْنِكَ مِنْ عَشَاهَا
وَيَهْدِيكَ⁽²⁾ السَّيْلَ إِذْ ضَلَلْتَا
- (9) وَتَحْمِلُ مِنْهُ فِي نَادِيكَ تَاجاً
وَيَكْسُوكَ الْجَمَالَ إِذْ اعْتَزَيْتَا⁽³⁾

(1) في ت : إلى ما فيه رشذك إن قبلتا.

(2) في د : وتجلو وتهديك.

(3) في د : اغتربتا.

- (10) ينالك نفعه مادمت حيا
ويبقى ذخره لك إن ذهبتا⁽¹⁾
- (11) هو العَضْبُ المُهَنْدُ ليس ينبو
تُصِيبُ به المَقَاتِلُ⁽²⁾ إن ضربتا
- (12) وكنزٌ لا تخاف⁽³⁾ عليه لصاً
خفيفُ الحمل يُوجد حيث كنتا
- (13) يزيدُ بكثرة الإنفاق منه
وينقص إن به كفاً شددتَا
- (14) فلو قد ذقت من حلواه طعاماً
لآثرت التعلّم واجتهدتَا
- (15) ولم يشغلك عنه هوى مطاعٍ
ولادُنِيَا بزُخرفها ففتتَا⁽⁴⁾
- (16) ولا أهلك عنه أنيقُ روضٍ
ولا خدّر⁽⁵⁾ بربرٍ به كلفتَا
- (17) فقوّث الروح أرواحُ المعاني
ولست بأن طعمت وأن شربتَا⁽⁶⁾

(1) هذا البيت ساقط في ش.
(2) هذا ما في ل وفي بقية النسخ : مقاتل من ضربتا. وقد أثرنا ماظهر لنا أنه أشعر.
(3) في ت : لا يخاف .. لصاً. وهو تصحيف.
(4) فيت : افئتنا.
(5) في ل و ش خذن.
(6) في ل : ولا شربتا. وفي ت أو أن شربتا.

- (18) فَوَاضِلُهُ وَخِذْ بِالْجِدِّ فِيهِ
فَإِنْ أَعْطَا اللَّهُ قَدْ انْتَفَعْنَا
- (19) وَإِنْ أُوتِيَتْ فِيهِ طَوِيلُ بَاعٍ
وَقَالَ النَّاسُ إِنَّكَ قَدْ سَبَقْنَا
- (20) فَلَا تَأْمَنْ سَوَالُ اللَّهِ عَنْهُ
بِتَوْبِيخٍ : عَلِمْتَ فَهَلْ عَمِلْنَا ؟
- (21) فَرَأْسُ الْعِلْمِ تَقْوَى اللَّهِ حَقًّا
وَلَيْسَ بِأَنْ يُقَالَ لَقَدْ رَأَسْنَا
- (22) وَأَحْسَنُ ثَوْبِكَ الْإِحْسَانُ⁽¹⁾ لَا أَنْ
تُرَى ثَوْبَ الْإِسَاءَةِ قَدْ لَبَسْنَا
- (23) إِذَا مَا لَمْ يُفِدْكَ الْعِلْمُ خَيْرًا
فَخَيْرٌ مِنْهُ أَنْ لَوْ قَدْ جَهِلْنَا
- (24) وَإِنْ أَلْقَاكَ فَهْمُكَ فِي مَهَاوٍ
فَلَيْتَكَ ثُمَّ لَيْتَكَ مَا فَهَمْنَا
- (25) سَتَجْنِي مِنْ ثَمَارِ الْعَجْزِ جَهْلًا
وَتَصْغُرُ فِي الْعَيُونِ وَإِنْ كَبُرْنَا⁽²⁾
- (26) وَتُفْقَدُ إِنْ جَهِلْتَ وَأَنْتَ بَاقٍ
وَتُوجَدُ إِنْ عَلِمْتَ وَقَدْ فُقِدْنَا

(1) هذا ما في ل. وفي بقية النسخ : أخذنا.

(2) في ش : وعود نفسك الاحسان. وفي د : وضايفي ثوبك الاحسان.

(3) في ت ود : إذ كبرنا.

- (27) وتذكر قولتي لك بعد حين
وتغبطها إذا عنها شغلنا
- (28) وسوف تعض من ندم عليها
وما تغني الندامة إن ندمنا
- (29) إذا أبصرت صحبك في سماء
قد ارتفعوا عليك، وقد سفلتنا
- (30) فراجعها ودع عنك الهوينا
فما بالبطء تُدرك ماأردتنا⁽¹⁾
- (31) ولا تحفل بمالك واله عنه
فليس المال إلا ما علمتنا
- (32) وليس لجاهل في الناس معنى
ولو مُلك العراق له تأتى
- (33) سينطق عنك علمك في ندي
ويكتب عنك يوماً إن كتبنا
- (34) وما يُغنيك تشييد المباني
إذا بالجهل نفسك قد هدمنا
- (35) جعلت المال فوق العلم جهلاً
لعمرك في القضية ما عدلتنا

(1) هذا هو البيت الذي استبعده ناشر الديوان.

- (36) وبينهما بنصُّ الوحي بَوْنٌ
ستعلمه إذا (طه) قرأتا⁽²⁾
- (37) ولئن رفع الغني لواء مال
لأنت لواء علمك قد رفعتا
- (38) وإن جلس الغني على الحشايا
لأنت على الكواكب قد جلستا
- (39) وإن ركب الجياد مُسَوِّمَاتٍ
لأنت مناهج التقوى ركبنا
- (40) ومهما افتضَّ أبكار الغواني
فكم بكرٍ من الحكم⁽³⁾ افتضضنا
- (41) وليس يضرُّك الاقتار شيئاً
إذا ما أنت ربك قد عرفتا⁽⁴⁾
- (42) فماذا عنده لك⁽⁵⁾ من جميل
إذا بفناء طاعته أنختنا
- (43) فقابل بالقبول صحيح نصحي
فإن أعرضت عنه فقد خسرتا

(2) في سورة طه آيات في فضل العلم والتزهيد في الدنيا كآية (وقل رب زدني علماً) وآية (ولا تمدن عينيك إلى ما متّعنا به أزواجا منهم).

(3) في ش : من المعنى

(4) في ت : قد أطعنا

(5) في ت : به رجحنا.

- (44) وَإِنْ رَاعَيْتَهُ قَوْلًا وَفِعْلًا
وَتَاجَرْتَ إِلَيْهِ فَقَدْ رَجَحْتَ⁽¹⁾
- (45) فَلَيْسَتْ هَذِهِ الدُّنْيَا بِشَيْءٍ
تَسْوَأُكَ حِقْبَةً وَتَسُرُّ وَقْتَنَا
- (46) وَغَايَتُهَا إِذَا فَكَّرْتَ فِيهَا
كَفَيْتُكَ أَوْ كَحُلْمِكَ إِنْ حُلِمْتَ⁽²⁾
- (47) سُجِنْتَ بِهَا وَأَنْتَ لَهَا مُحِبٌّ
فَكَيْفَ تَحِبُّ مَا فِيهِ سُجِنْتَ
- (48) وَتُطْعِمُكَ الطَّعَامَ وَعَنْ قَرِيبٍ
سَتَطْعَمُ مِنْكَ مَا مِنْهَا طَعِمْتَ
- (49) وَتَعْرِى أَنْ لَبِستَ بِهَا⁽³⁾ ثِيَابًا
وَتُكْسَى أَنْ مَلَأْتَهَا خَلْعًا
- (50) وَتَشْهَدُ كُلُّ يَوْمٍ دَفْنٍ خِلٌّ
كَأَنَّكَ لِأَثْرَادِهَا شَهِدَتَا⁽⁴⁾
- (51) وَلَمْ تُخْلَقْ لَتَعْمُرْهَا وَلَكِنْ
لِتَعْبُرْهَا، فَجَدُّ لَمَّا خُلِقَتْ

(1) في د : ان حكمتا.

(2) في د : ان حكمتا.

(3) في د : لها.

(4) في ت : لما شهدتا.

- (52) وان هُدمت فزدها أنت هدماً
وشيد⁽¹⁾ أمر دينك ما استطعتا
- (53) ولا تحزن على مافات فيها
إذا ما أنت. في اخراك فزتا
- (54) فليس بنافع ما نلت منها⁽²⁾
من الفاني إذا الباقي حُرمتا
- (55) ولا تضحك مع السفهاء هواً⁽³⁾
فإنك سوف تبكي إن ضحكنا
- (56) وكيف لك السرور وأنت فان
ولا تدري أثفدى أم غلقتا⁽⁴⁾
- (57) وسئل من ربك التوفيق فيها
وأخلص في السؤال إذا سألتا
- (58) وناد إذا سجدت له اعترافاً
بما ناداه ذو النون بن متى⁽⁵⁾
- (59) ولازم بابَه قرعاً عساه
سيفتح بابَه لك إن قرعتا

(1) هذا ما في ش. وفي ت ود : وحصن.

(2) في ش و ت : منهم.

(3) في ت : جهلاً.

(4) غلقتا : أي لم تُفد. وهذا البيت ساقط في : ش و ت.

(5) هو يونس النبي عليه السلام وماناداه به قوله : «لا إله إلا أنت سبحانك إني

كنت من الظالمين» كما في القرآن الكريم سورة الأنبياء آية : 76

- (60) وأكثر ذكره في الأرض دأباً
لُتذكر في السماء إذا ذكرتاً
- (61) ولا تَقُل الصُّبَا فيه مجالٌ
وفكرٌ كم صغيرٍ قد دفتنا
- (62) وقُل لي يا نصيحُ لَأنتَ أولى
بنصحك لو بعقلك قد نظرتا⁽¹⁾
- (63) تُقَطُّعني⁽²⁾ على التفريط لوماً
وبالتفريط دهرُك قد قطعنا
- (64) وفي صغري تُخَوِّفني المنايا
وما تجري ببالك حين شِخْتنا
- (65) وكنت مع الصُّبَا أهدى سبيلاً
فما لك بعد شَيْبك قد نكستا
- (66) وها أنا لم أُخْضُ بحر الخطايا
كما قد نُخْضته حتى غرقتنا
- (67) ولم أشرب حُمِيّاً أم دُفراً⁽³⁾
وأنت شربتها حتى سكرتُنا⁽⁴⁾

(1) سقط هذا البيت وما بعده إلى البيت 94 من : ش.

(2) في ت : فتقطعني.

(3) أم دفر : كنية الدنيا. والدفر : التثنية.

(4) في ت : شكرتنا.

- (68) ولم أحل بواٍ فيه ظلم
وأنت حلت فيه وانهمكتا⁽¹⁾
- (69) ولم أنشأ بعصر فيه نفع
وأنت تشأت فيه وما انتفعتا
- (70) وقد صاحبت⁽²⁾ أعلاماً كباراً
ولم أرك اقتديت بمن صحبتا
- (71) وناداك الكتاب فلم يجبه
ونبّهك⁽³⁾ المشيب فما انتهتا
- (72) ليقبح بالفتى فعل التصابي
وأقبح منه شيخ قد نفّى
- (73) فأنت أحق بالتنفيذ مني
ولو سكّت المٌسيء لما نطقتا
- (74) ونفسك ذم لاتذم سواها
ولو سكّت المٌسيء لما نطقتا
- (75) فلو بكت الدما عيناك خوفاً
لذنبك لم أقل لك قد أمّتا
- (76) ومن لك بالأمان وأنت عبد
أمرت فما اثمرت ولا أطعتا

(1) في د : ونهملتا.

(2) في ت : وكم صاحبت.

(3) في د : ونههك.

- (77) ثَقُلْتُ مِنَ الذُّنُوبِ وَلَسْتُ تَخْشَى
بِجَهْلِكَ⁽¹⁾ أَنْ تَخْفَ إِذَا وُزِنَتْ
(78) وَتُشْفِقَ لِلْمَصْرِ⁽²⁾ عَلَى الْمَعَاصِي
وَتَرْحَمُهُ، وَنَفْسَكَ مَارِحَتَا
(79) رَجَعْتَ الْقَهْقَرَى وَخَبِطْتَ عَشْوَا
لِعَمْرِكَ لَوْ وَصَلْتَ لَمَّا رَجَعْنَا
(80) وَلَوْ وَافَيْتَ رَبَّكَ دُونَ ذَنْبٍ
وَنَاقَشْتَ الْحِسَابَ إِذْ هَلَكْنَا⁽³⁾
(81) وَلَمْ يَظْلِمَكَ فِي عَمَلٍ وَلَكِنْ
عَسِيرٌ أَنْ تَقُومَ بِمَا حَمَلْنَا
(82) وَلَوْ قَدْ جِئْتَ يَوْمَ الْفَضْلِ فَرْدًا
وَأَبْصَرْتَ الْمَنَازِلَ فِيهِ شَيْ
(83) لِأَعْظَمَتِ النَّدَامَةُ فِيهِ لَهْفًا
عَلَى مَا فِي حَيَاتِكَ قَدْ أَضَعْنَا
(84) تَفَرُّ مِنَ الْهَجَرِ وَتَتَّقِيهِ
فَهَلَّا عَنْ جَهْلِكَ قَدْ فَرَرْنَا
(85) وَلَسْتَ تُطِيقُ أَهْوَانَهَا عَذَابًا
وَلَوْ كُنَّا الْحَدِيدَ بِهَا لُبْنَا

(1) فِي د : بِحَمْلِكَ.

(2) فِي د : لِلْمَضَرِّ.

(3) فِيهِ إِشَارَةٌ إِلَى الْحَدِيثِ : مَنْ تُوقِسَ الْحِسَابَ عُذِّبَ.

- (86) فلا تَكْذِبْ فَإِنَّ الْأَمْرَ جَدٌّ
وليس كما حسبت ولا ظننت⁽¹⁾
- (87) أبا بكر كَشَفْتَ أَقْلَ عَيْبٍ
وَأَكْثَرَهُ وَمُعْظَمَهُ⁽²⁾ سَتَرْتَنَا
- (88) فَقُلْ مَا شِئْتَ فِيَّ مِنَ الْخَازِي
وَضَاعِفْهَا فَإِنَّكَ⁽³⁾ قَدْ صَدَقْنَا
- (89) وَمَهْمَا عِبْتَنِي فَلِفِرْطِ عِلْمِي
بِبَاطِنِي، كَأَنَّكَ قَدْ مَدَحْتَنَا
- (90) فَلَا تَرْضَ الْمَعَائِبَ فَهِيَ عَارٌ
عَظِيمٌ يَوْرَثُ الْإِنْسَانَ مَقْتًا
- (91) وَتَهْوِي بِالْوَجْهِ مِنَ الثُّرَيَّا
وَتُبْدِلُهُ مَكَانَ الْفَوْقِ تَحْتًا
- (92) كَمَا الطَّيْعَاتُ تُتَعَلِّقُ الدَّرَارِي
وَتَجْعَلُكَ الْقَرِيبَ وَإِنْ بَعُدْنَا
- (93) وَتَنْشُرُ عَنْكَ فِي الدُّنْيَا جَمِيلًا
فَتَلْقَى⁽⁴⁾ الْبِرَّ فِيهَا حَيْثُ سِرْنَا

(1) في ت : ولا زعمنا.

(2) في ت : وأعظمه.

(3) في ت : تعلقك.

(4) في ت : وتلقى.

- (94) وتمشي في مراكبها كريماً
وتجني الحمد مما قد غرستا
- (95) وأنت الآن لم تُعرف بعيب⁽¹⁾
ولا دنّست ثوبك مذ نشأتا
- (96) ولا سابقت⁽²⁾ في ميدان زورٍ
ولا أو ضعت فيه ولا خبتا
- (97) فإن لم تنأ عنه نشبت فيه
ومن لك بالخلاص إذا نشبتا
- (98) ودنّس ما تطهر منك حتى
كأنك قبل ذلك ما طهرتا
- (99) وصيرت أسير ذنبك في وثاقٍ
وكيف لك الفكاكُ وقد اسرتا
- (100) وخف أبناء جنسك واخش منهم
كما تخشى الضراغم والسبتي⁽³⁾
- (101) وخالطهم وزايلهم حذاراً⁽⁴⁾
وكن كالسامري⁽⁵⁾ إذا لمستا

(1) في د : بعاب.

(2) في ش : ولا سبقت.

(3) السبتي : الثمر.

(4) في ت ود : نخدارا. وهو تصحيف.

(5) السامري صاحب عجل بني إسرائيل، عاقبه موسى عليها السلام بنهي الناس =

- 102) وان جهلوا عليك فقلّ سلاماً
لعلّك سوف تسلم إن فعلتاً⁽¹⁾
- 103) ومن لك بالسلامة في زمانٍ
ينال العُصم⁽²⁾ إلا إن عُصمتا
- 104) ولاتلبث بحيّ فيه ضميم⁽³⁾
يُميت القلب إلا إن كُبتا
- 105) وغرب فالغريب له نفاق⁽⁴⁾
وشرّق إن بريقك قد شرقا
- 106) فليس الزهد في الدنيا خُمولاً
لأنت بها الأمير إذا زهدتا
- 107) ولو فوق الأمير يكون فيها
سموّ وافتخار⁽⁵⁾ كنت أنتا
- 108) فإن فارقتها وخرجت منها
إلى دار السلام⁽⁶⁾ فقد سلمتا

= عن مقاربته ومماسّته. فالمراد : اهرب منهم، وهذا البيت والثلاثة بعده ساقطة

من : ش.

(1) في د : ان عقلنا.

(2) العصم : الجوارح والوعول المتعنة برؤوس الجبال.

(3) في ت : ظلم.

(4) نفاق أي رواج وقبول.

(5) في د : تكون فيها سموّاً وافتخاراً. وهذا البيت ساقط من : ش.

(6) دار السلام : الجنة، وفي ش : إذا فارقتها. وهي تنتهي عند هذا البيت.

- (109) وإن أكرمتها ونظرت منها
بإجلال فنفسك قد أهنتا
- (110) جمعتُ لك النصائح فامثلها
حياتك فهي فضلٌ مامثلتها
- (111) وطولت⁽¹⁾ العتاب وزدتُ فيه
لأنك في البطالة قد اطلتا
- (112) فلا تأخذ بتقصيري وسهوي
وخذ بوصيتي لك إن رشدتا
- (113) وقد أردفتُها سبعا حسناً
وكانت قبلَ ذا مئةً وستاً

(1) في د : وحولت.

نونية أبج الحسن المسفر

هو الشيخ الحكيم أبو الحسن علي (بن خليل) المسفر السبتي، عرف بلقب المسفر الذي يعني أنه من أهل صناعة تفسير الكتب، وربما كان من عال المسفر الاشراف الحسينيين المعروفين بفاس لأننا لم نعرف هذا الشيخ إلا من طريق ذكره عرضا في كتاب محاضرة الابرار ومسامرة الاخيار لابن عربي الحاتمي فلا نستطيع أن نجزم فيه بشيء.

قال ابن عربي : «أنشدنا أبو عبد الله بن عبد الجليل قال أنشدني أبو الحسن على المسفر بسبته لنفسه.

ياأيها المبتلى بذي. قد علم الله ماتقول
فالقول ان خف في لساني.. أخافني وزنه الثقل
وحافظ كاتب شهيد... يكتب عني الذي أقول
من حاسب النفس كل حين... لم يتهاون بما يقول
ثم قال بأثر ذلك : «كان هذا الشيخ المسفر جليل القدر حكيما
عارفا غامضا في الناس نخمولى الذكر، رأيت بسبته، له تصانيف منها
منهاج العابدين الذي يعزى لأبي حامد الغزالي وليس له، وإنما هو

من مصنفات هذا الشيخ، وكذلك كتاب النفخ والتسوية الذي يعزى إلى أبي حامد أيضا وتسميه الناس المضمون الصغير.

ولهذا الشيخ أيضا القصيدة المشهورة وهي هذه :

قل لاخوان رأوني ميتا
فبكوني ورثوني حزنا
اتظنون بأنني ميتكم
لست ذاك الميت والله أنا

إلى آخر القصيدة التي سنتكلم عليها فيما بعد.

هذا جملة ماورد عن صاحبنا في كتاب المحاضرة وهو أمر يدعو إلى إطالة التفكير في خدج الشخصية الغامضة التي كاد الإهمال يطويها من سجل التاريخ لولا تلك الإشارة العابرة من الشيخ محيي الدين رحمه الله. وعلى كل حال فالراوي ثقة لا يتطرق إليه الشك الا ترى إلى روايته للأبيات الأربعة عن ابن عبد الجليل أي بالواسطة على الرغم من رؤيته للشيخ بسبته ؟. وهو مع ذلك من أرباب هذا الشأن وذوي الرسوخ فيه، فإذا قال عن منهاج العابدين أنه يعزى لأبي حامد الغزالي وليس له، وإنما هو من مصنفات هذا الشيخ، بهذه العبارات المفيدة لتأكيد مضمونها، فإنه يعرف مايقول ويعنيه. وكذلك يقال في كتاب النفخ والتسوية والقصيدة النونية التي نسبت أيضا للغزالي. وليس هذا فقط فإننا نجد في هذه الفدلكة من كلام الشيخ الأكبر جوابا عن تساؤل طالما رددته الباحثون في آثار

الإمام الغزالي وحلا لمشكل يتعلق بنفس فلسفة هذا المفكر العظيم.
ذلك أن كتاب منهاج العابدين لم يذكره ابن السبكي في جملة
مؤلفات الغزالي أثناء ترجمته له في طبقات الشافعية، وقد لاحظ ذلك
السيد مرتضى الزبيدي في شرح الأحياء، وأشار إلى مقالة ابن عربي
هذه. وقد يعني ذلك أن نسبة الكتاب إلى الغزالي لم تكن معروفة
في كل الأوساط بحيث خفيت على ابن السبكي فلم يذكره ولو بهذه
الصفة. وذلك ما يرجح أنه ليس من مؤلفاته.

وذكر أبو سالم العياشي في رحلته كلام ابن عربي هذا ثم عقب
عليه بما يلي :

(قلت قد اشتهر واستفاض نسبة منهاج العابدين للغزالي، وقد كنت
قبل رؤية هذا الكلام أتعجب من كونه ليس جاريا على مذهبه في
كتبه، ولا هو مطابق لنفسه، وكنت أبحث كثيرا عن المشائخ الذين
ينقل عنهم فيه حيث يقول : قال شيخنا أبو محمد، قال شيخنا أبو
عمرو، وليس ذلك دأبه في مصنفاته وأنا مع ذلك لأشك أن
الكتاب له لاشتهار ذلك، وللإشارة فيه إلى أحياء علوم الدين، ولنقله
فيه عن امام الحرمين سماعا، فلما رأيت كلام الشيخ محيي الدين
المتقدم تيقنت أنه ليس له لعدالة الشيخ محيي الدين وسعة علمه
واطلاعه، سيما وقد ذكر أنه يعزى لأبي حامد فما نفاه عنه مع
علمه بالعزو المذكور إلا لعلم يقين حصل له بأنه لغيره مع شواهد
القرائن المتقدمة، فإن كلام أبي حامد لا يكاد يخفى على من مارسه،
فإنه لسان وقته بلاغة وتحريرا.

وذو الذوق السليم يميز بين الكلامين. ويشهد لذلك أيضا أن من عرف بالامام أبي حامد من الأقدمين لم يذكروا هذا الكتاب في تأليفه والله أعلم).

وهذا البحث المنهجي من أبي سالم العياشي ينفي كل مابقى من احتمال لصحة نسبة الكتاب المذكور إلى الامام الغزالي. وهو عند التحليل يرجع إلى العناصر الآتية :

(1) أسلوبه غير أسلوب الغزالي فهو ليس جاريا على مذهبه، ولا مطابقا لنفسه. وقد توارد الدكتور زكي مبارك مع العلامة أبي سالم على هذه العلة فقال في كتاب الأخلاق عند الغزالي : «ومن مؤلفاته الهامة في الأخلاق كتاب منهاج العابدين وهو آخر مصنفاته ولعل هذا هو السر فيما احتواه هذا الكتاب من مظاهر الضعف والاضطراب. وقد رأيت كيف اعتلت صحته بسبب العزلة. ونقل الزبيدي عن المسامرة لابن عربي أنه ليس له وإنما هو لأبي الحسن علي بن خليل السبتي وسترى بعد قليل مازور باسم الغزالي من التأليف».

(2) الأشياخ الذين ينقل عنهم ليسوا من أشياخ الغزالي المعروفين. وقد كنت قبل وقوفي على كلام أبي سالم سلكت نفس الطريق في معرفة مدى توافق هذا الكتاب وكتاب الأحياء الذي وقعت الإشارة إليه على أنه للمؤلف، فوصلت للنتيجة نفسها وهي أن هؤلاء المشايخ لا ذكر لهم عند الغزالي.

(3) عدالة الشيخ محيي الدين الذي نسب الكتاب لصاحبه الحقيقي مع معرفته بعزوه للغزالي وقد زدنا على ذلك فيما سبق أنه من أرباب هذا الشأن فلا يخفى عليه ماهو من كلام الغزالي وماهو من كلام غيره.

(4) عدم ذكر هذا الكتاب في مؤلفات الغزالي عند من عرف به من الأقدمين. وقد أشار الزبيدي إلى هذا الوجه فيما المعنى إليه سابقا.

وبالرغم من القيمة العلمية لهذا البحث فإن المحقق أبا العباس الهلالي لم يقتنع به فكتب عليه في (نور البصر) بعد نقله له ما نصه : «قلت ورأيت مكتوبا على نسخة منهاج العابدين منقولا من خط الامام القصار أنه للغزالي وأنه آخر مألّفه، وأنه أنفع كتبه فيما أظن. وماذكره ابن العربي ان صح فلعله كتاب آخر لابن المسفر وافق كتاب الغزالي في الاسم. وأما منهاج العابدين المشهور ففيه التصريح بأن مؤلفه مؤلف الأحياء. ففي رجوع الشيخ أبي سالم عن اعتقاده الأول إلى ما عند الحاتمي نظر والله أعلم.»

والعجيب من الهلالي إذ يقول : «وماذكره ابن العربي (ان صح) فلعله كتاب آخر لابن المسفر وافق كتاب الغزالي في الاسم» وهو يرى أن الكلام كله مبني على نفي هذا المنهاج المنسوب للغزالي عنه وإثباته لمن هو له حقيقة ثم هو يتشكك في رواية ابن عربي مع ما علم من عدالته وثبته وكونه معاصرا لصاحبنا أبي الحسن

المسفر، ويتمسك بما وجد منقولاً من خط الامام القصار في صحة نسبة الكتاب إلى الغزالي، ولا يخلو أن يكون ذلك مجارة للاعتقاد الشائع الذي لم يخف على أبي سالم. وأما ما جاء في الكتاب من التصريح بأن صاحبه هو مؤلف كتاب الأحياء فقد عرفه الجميع وهو ما حفزهم على البحث في ذلك حتى تحققوا بعدم صحته وتطرقوا منه إلى ذكر مانسب إلى الغزالي وغيره من الكتب التي ليست له ولا تمثل فيها روحه. فلا شك عندي أن الهلالي لم يتأمل كلام العياشي ولذلك خانه تحقيقه.

هذا ما يتعلق بكتاب منهاج العابدين، وأما كتاب النفخ والتسوية المعروف بالمضنون الصغير، فإنه أيضاً لم يذكره ابن السبكي في تعداد مؤلفات الغزالي، وذكر المضنون به على غير أهله أعني المضنون الكبير عرضاً أثناء الدفاع عن أبي حامد ورد ما انتقد عليه وهذا نصه في ذلك : (وذكر ابن الصلاح أن كتاب المضنون المنسوب إليه معاذ الله أن يكون له، وبين سبب كونه مختلفاً موضوعاً عليه، والأمر كما قال، وقد اشتمل المضنون على التصريح بقدم العالم ونفي علم القديم بالجزئيات ونفي الصفات، وكل واحدة من هذه يكفر الغزالي قائلها هو وأهل السنة أجمعون فكيف يتصور أنه يقولها ؟) فإذا كان ابن عربي إنما نفى عن الغزالي المضنون الصغير، وإذا كان كلامه يقضي بأن المضنون الكبير هو للغزالي فهذا ابن السبكي لا يتعرض للمضنون الصغير بنفي ولا إثبات وينفي المضنون الكبير قطعاً عن الغزالي.

وربما يقول القارىء أن كلامه ليس نصا في أحد المضمونين فهاذا حملتموه على الكبير ؟ قلنا أن وصف الكبير والصغير إنما هو اصطلاح حادث والا فالكبير اسمه المضمون به على غير أهله والصغير اسمه النفخ والتسوية، وأظن أن الناس أطلقوا عليه اسم المضمون الصغير من أجل تشابهه موضوعا في الجملة مع المضمون به على غير أهله ثم لصغر حجمه عنه. على أن السيد مرتضى الزبيدي قد فصل الكلام عنهما تفصيلا مما يفيد أن انتقاد ابن الصلاح موجه يقينا للمضمون الكبير. فقد قال في التنبيه على ما عرى لأبي حامد من كتب ليست له : (ومنها كتاب النفخ والتسوية فإنه كذلك موضوع عليه، ومنها المضمون على غير أهله، قال ابن السبكي ذكر ابن الصلاح أنه منسوب إليه، وقال معاذ الله أن يكون له إلى آخر ما سبق نقله عن ابن السبكي.

وقال على إثره : (وهو عندي، وفي المسامرة — يعني محاضرة الأبرار ومسامرة الأخيار لابن عربي — أنه من تأليف علي بن خليل السبتي، وكذلك صرح صاحب تحفة الإرشاد بأنه موضوع عليه وقد صنف أبو بكر محمد بن عبد الله المالقي كتابا في رده وتوفي سنة 750)

وقد عاد الزبيدي فخلط في هذا الكلام بين المضمونين إذ من المعلوم أن الذي ذكره ابن عربي هو الصغير، وعلى كل فقد أفاد هذا الكلام أن كليهما موضوع على الغزالي وليس من تأليفه. وأن

أحدهما وهو الكبير فيما يظهر لقي حملة عنيفة من لدن ابن الصلاح إلى أبي بكر المالقي الذي ألف كتابا خاصا في رده وقفت على تسميته عند النباهي في المرقبة العليا بكتاب السجوم الواكفة، والظلال الوارفة، في الرد على ماتضمنه المضمون به من اعتقادات الفلاسفة ولنا في سبب عزو كتاب النفخ والتسوية إلى الغزالي وتسميته المضمون الصغير رأي لا يبعد أن يكون صوابا، وهو أن هذا الكتاب وضع بشكل أسئلة وأجوبة نسبت في طالعها إلى الغزالي، ولذلك يُسمى أيضا كتاب الأجوبة الغزالية في مسائل الأخروية كما ثبت على ظهر النسخة المطبوعة منه، فلعل صاحبنا الشيخ المسفر وضعه بهذا الشكل لترويجيه ولضمان اقبال الناس عليه، وهكذا جاء في أوله :

سئل الشيخ الامام الأجل الزاهد السيد حجة الاسلام زين الدين مقتدى الأمة قدوة الفريقين أبو حامد محمد بن محمد الغزالي قدس الله روحه ونور ضريحه، عن معنى قوله تعالى : «فإذا سويته ونفخت فيه من روحي»، ماالتسوية وما النفخ وما الروح فقال... إلى آخره فهذا الأسلوب الذي حرر به الكتاب مما يفيد أنه من املاء الغزالي وإن كان هو في الواقع من تأليف المسفر، جعل الناس ينسبونه للأول دون الثاني وتلاقيه مع المضمون به على غير أهله في بعض المسائل، وخاصة في الركن الرابع الذي يشتمل على أحوال ما بعد الموت، مع كبر حجم هذا وتعرضه لمسائل لم يتعرض لها كتاب النفخ والتسوية، كل ذلك مما أعطاه اسم المضمون الصغير.

على أن المهم في هذا كله هو حل المشكل الذي تعرض له ابن الصلاح وهو اقتضاء نسبة المضمون إلى الغزالي أنه يقول بقدوم العالم وعدم علم القديم سبحانه وتعالى بالجزئيات ونفي الصفات القديمة عنه وهو مذهب الفلاسفة الذي عرف الغزالي رحمه الله بالتفاني في دحضه وإقامة الأدلة على بطلانه، كما يعلم من كتابه تهافت الفلاسفة وغيره، فجاء كلام ابن عربي في كتابه محاضرة الأبرار مزيجاً لهذه العلة مزيلاً لهذه الشبهة حيث أن الكتاب المذكور ليس له، وإنما هو لصاحبنا المسفر كما جاء كلامه المشار إليه جواباً عن سؤال المشتبهين في نسبة كتاب منهاج العابدين للغزالي بعد أن درسوه ورأوه مخالفاً لطريقته ولا يشبه نفسه.

فإن قيل أن الذي نفاه ابن عربي عن أبي حامد هو المضمون الصغير، والطعن المذكور إنما يتوجه إلى المضمون الكبير، قلنا أن هذه مسألة أخرى تثير إشكالا جديداً، وهو أن كلا من المضمونين اللذين بيدنا لا يوجد فيهما التصريح بشيء مما ذكره ابن الصلاح، عدا ما يوهمه كلامه في المضمون الصغير في فصل الروح من القول الأول أعني قدم العالم، وكذلك بعض فقرات من المضمون الكبير فلعل العبارات التي كانت صريحة في هذا المعنى جردت منه.

وثم في المضمون الصغير في الفصل المذكور عبارة تترى بالاشعرية والمعتزلة، وهذا بالنسبة إلى نفي الكتاب عن الغزالي مهم جداً، لأن من المعروف أن أبا حامد كان أشعري العقيدة فهو لا يتوكل على أصحابه بهذه الصورة.

وننظر أخيرا في قصيدة صاحبنا النونية التي قال عنها ابن عربي أنها قصيدة مشهورة فنجد أنها نسبت أيضا إلى الغزالي، وقيل انها وجدت بعد موته تحت وسادته، فأما نسبتها إليه فتستفاد من شرح الأحياء للزيدي حيث أنه قال في التنبيه الذي تقدمت الإشارة إليه على الكتب التي عزيت للغزالي مانصه : (ومنها كتاب تحسين الظنون. وله فيه :

لاتظنوا الموت موتا أنه
لحياة وهي غايات المنى
أحسنوا الظن برب راحم
تشكروا السعي وتاتوا أمتا
مأأرى نفسي إلا أنتم
واعتقادي أنكم أنتم أنا.

وهذه الأبيات هي من ضمن القصيدة التي نحن بصدددها، فهذا مايدل على نخلها للغزالي. وأما أنها وجدت بعد موته تحت وسادته فإننا رأينا ذلك مكتوبا على نسخة خطية منها. وقد علمت أن الشيخ الأكبر جزم بنسبتها لصاحبنا من غير أن يقول أنها تنسب للغزالي كما قال في الكتابين السابقين من تأليفه، فلم يبق شك في أنها للشيخ المسفر.

وهذه القصيدة هي من الشعر الفلسفي الرفيع، وحقها أن تقرر بعينية الشيخ الرئيس ابن سينا فإن كلا منهما تناولت مطلبها مهما

من مطالب الفلسفة وصاغته صياغة شعرية جميلة يمتزج الخيال فيها بالحقيقة، ويخلق في سماء العقل فيرود آفاق المعرفة من غير أن يفقد طبيعته السحرية الأخاذة أو يضيع لحنه الشجي الخالد.

وإذا كانت عينية ابن سينا تتناول موضوع النفس، فإن نونية صاحبنا تتناول موضوع الموت وما بعد الطبيعة، فتعتبر الموت تحررا من قيد السجن وانطلاقا نحو حياة أفضل من هذه الحياة الدنيا هي ما كانت النفس تتمناه وترغب في التعرف إليه لتبلغ كمالها، وتنعم أبدا في عالم قدسي يكشف لها فيه الحجاب عن الحقائق العليا وتعود سيرتها الأولى من الفطرة التي فطر الله عليها الناس، ويتلمح من القصيدة القول بوحدة الوجود، وهو من مذاهب الفلسفة التي أخذ بها كثير من المتصوفة كالشيخ الأكبر وغيره، وفي النص الذي أثبتته الزبيدي من كلام ابن عربي عن صاحبنا بعد قوله رأيت بسبته زيادة جملة لا توجد بنسخة المحاضرة المطبوعة وهي : (وتباحثت معه) فلا شك أن مباحثاتهما كانت في هذه المطالب وماشابهها. وكان ابن عربي حينئذ في عنقوان الشباب، في سن الثلاثين فما إليها، لأنه ولد سنة 560 ورحل إلى المشرق رحلته التي لم يرجع منها سنة 598 وفي أثناء ذلك كان يقيم باشبيلية، ويتردد على المغرب للدراسة والسياحة إذ ثبت أنه درس بسبته وفاس على بعض علمائهما.

أما صاحبنا فالغالب أنه كان في نهاية عمره، ويدل على ذلك أن ابن عربي روى الأبيات اللامية الأربعة من نظمه عن طريق بعض

شيوخه، فهو وإن لقيه يعد في رتبة مشيخة شيوخه. وبذلك نظن أنه لم يتجاوز القرن السادس فهو من رجاله.

والآن نقدم نص القصيدة كاملاً على ما حققناه من مقابلة النسخة المطبوعة بالمخطوطة التي عندنا وهي تزيد على المطبوعة خمسة أبيات مع اختلاف في الترتيب وفي بعض الألفاظ. وإن كان لفظ المطبوعة في بعض الأبيات يكون أوفق للمعنى أو أنسب للوزن، والأبيات الزائدة في مخطوطتنا هي الثاني، والسادس والتاسع، والثامن والعشرون، والواحد والثلاثون، بترتيبها الذي اتبعناه لاترجيحاً له ولكن لأن ترتيب المطبوعة هو تحت نظر كل واحد، فنكون بهذا قد وضعنا النسختين معا بين يدي من يهتم بدراسة القصيدة أو آثار الشيخ المسفر جملة :

- (1) قل لإخوان رأوني ميتاً
فبكوني ورثوني حزناً
- (2) أعلى الغائب مني حزناًكم
أم على الحاضر معكم هانئاً
- (3) أظنون بأنني ميتكم
ليس ذاك الميت والله أنا
- (4) أنا في الصور وهذا جسدي
كان لبسي وقميصي زمناً
- (5) أنا كنز وحجائي طلسم
من تراب قد تهيأ للفناء

- (6) أَنَا دُرٌّ قَدْ حَوَانِي صَدَفٌ
طَرْتُ عَنْهُ فَتَحَلَّى رَهْنًا
- (7) أَنَا عَصْفُورٌ وَهَذَا قَفْصِي.
كَانَ سِجْنِي فَأَلَفْتُ السَّجْنَ
- (8) أَشْكُرُ اللَّهَ الَّذِي خَلَّصَنِي
وَبَنَى لِي فِي الْمَعَالِي رُكْنًا
- (9) كُنْتُ قَبْلَ الْيَوْمِ مَيِّتًا بَيْنَكُمْ
فَحَيَّيْتُ وَخَلَعْتُ الْكِفْنَ
- (10) فَأَنَا الْيَوْمَ أَنَا جِي مَلَأُ
وَأَرَى اللَّهَ جَهَارًا عَلَنًا
- (11) عَاكِفٌ فِي اللَّوْحِ أَقْرَأُ وَأَرَى
كُلَّ مَا كَانَ وَيَأْتِي وَدَنَا.
- (12) وَطَعَامِي وَشَرَابِي وَاحِدٌ
هُوَ رَمْزٌ فَافْهَمُوهُ حَسَنًا
- (13) لَيْسَ خَمْرًا سَائِغًا أَوْ عَسَلًا
لَا، وَلَا مَاءً وَلَكِنْ لَبَنًا
- (14) هُوَ مَشْرُوبُ رَسُولِ اللَّهِ إِذْ
كَانَ يَسْرِي فِطْرَهُ مَعَ فِطْرِنَا
- (15) فَافْهَمُوا السِّرَ فِيهِ نَبَأُ
أَيُّ مَعْنَى تَحْتَ لَفْظِ كَمْنَا !

- (16) فاهْدِمُوا بَيْتِي وَرُضُّوا قَفْصِي
وَذَرُّوا الطَّلْسَمَ بَعْدِي وَثَنَا
- (17) وَقَمِصِي مَزْقُوهُ رِمَمًا
وَدَعُوا الْكُلَّ دَفِينًا يَبْنَا
- (18) قَدْ تَرَحَّلْتُ وَخَلَّفْتُكُمْ
لَسْتُ أَرْضَى دَارَكُمْ لِي وَطْنَا
- (19) حَيُّ ذِي الدَّارِ نَوَّومٌ مُغْرِقٌ
فَإِذَا مَاتَ أَطَارَ الْوَسْنَا
- (20) لَا تَظَنُّوا الْمَوْتَ مَوْتًا أَنَّهُ
لَحْيَاةٌ هِيَ غَايَاتُ الْمَنَى
- (21) لَا تُرْغَبُكُمْ هَجْمَةُ الْمَوْتِ فَمَا
هِيَ إِلَّا نُقْلَةٌ مِنْ هَاهُنَا
- (22) فَاخْلَعُوا الْأَجْسَادَ عَنْ أَنْفُسِكُمْ
تُبْصِرُوا الْحَقَّ عَيَانًا يَبْنَا
- (23) وَخُذُوا فِي الزَّادِ جَهْدًا لَا تُنْثَوَا
لَيْسَ بِالْعَاقِلِ مَنْ مَنَّا مِنْ وَفَى
- (24) حَسَنُوا الظَّنَّ بِرَبِّ رَاحِمٍ
تَشْكُرُوا السَّعْيَ وَتَأْتُوا أَمْنًا
- (25) مَا أَرَى نَفْسِي إِلَّا أَنْتُمْ
وَاعْتَقَادِي أَنْكُمْ أَنْتُمْ أَنَا

- (26) عنصر الأنفس منّا واحد
وكذا الجسم جميعا عمّنّا
- (27) فمتى ما كان خير فلنّا
ومتى ما كان شر فبنّا
- (28) فارحموني ترحموا أنفسكم
واعلموا أنكم في إثرنّا
- (29) أسأل الله لنفسي رحمة
رحم الله صديقا أمّنّا
- (30) وعليكم من سلامي صيّب
وسلام الله بئدا وتُنّي
- (31) أبَد الدهر إلى يوم يرى
بعضنا بعضا لرحب وهنا

محتويات الكتاب

5	المقدمة
9	قصيدة أنجم السياسة
12	من هو صاحبها
26	نسخها واسمها
28	نص قصيدة أنجم السياسة
41	قصيدة الواعظ الأندلسي في مناقب عائشة الصديقية
42	صاحب القصيدة
45	السماع
47	نسخ القصيدة
48	نص القصيدة
57	القصيدة الشقراطية في مدح المصطفى
58	القصيدة وصاحبها
59	تقريظ الناس لها واهتمامهم بها
61	نقد العبدري لها
62	نسخ القصيدة التي قابلناها عليها
65	نصها
81	تائية أبي إسحاق الألبيري
83	أبو إسحاق الألبيري
86	القصيدة ونسخها
90	نص القصيدة
105	نونية أبي الحسن المسفر
116	نص القصيدة